

جغرافية
المسعودي
بين
النظرية والواقع
من الأدب الجغرافي في التراث العربي

دكتور عبد الفتاح محمد وهيبه
أستاذ غير متفرغ بقسم الجغرافية
جامعة الإسكندرية

١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م

توزيع // مكتبة
جمال مرعي وشركاه
بالاسكندرية

توزيع منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حذى وشركاه

٤٤ ش سعد زغلول الاسكندرية تليفون /فاكس : ٤٨٣٣٣٠٣

جغرافية
المسعودي
بين
النظرية والواقع
من الأدب الجغرافي في التراث العربي

دكتور عبد الفتاح محمد وهيبه
أستاذ غير متفرغ بقسم الجغرافية
جامعة الإسكندرية

١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م

توزيع // **مكتبة** **الكتاب** **ف** بالاسكندرية
بملاك مرقى وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

« وقل انظروا ماذا في السموات والأرض »
صدق الله العظيم

الإهداء

إلى المثقفين العرب

تقديم

هذه دراسة متعمقة تعرض بالبحث والتقويم للأدب الجغرافى الذى ضمنه المسعودى كتابيه اللذين انتهيا إلينا وهما : « مروج الذهب » و « التنبيه والإشراف » . ويستند اختيارنا لهذا العالم الرحالة إلى أنه أكبر شخصيات النصف الأول من القرن الرابع للهجرة ، تمثلا لثقافة هذا العصر الزاهر وإحاطة بها فى وجوهها المختلفة .

وقد ضرب المسعودى بسهم وافر فى شتى ميادين المعرفة وخلف لنا تراثا قيما . ومن بين ما خلف لنا أدب رحلاته يسبقه عرض تقليدى لأدب جغرافى نظرى يتصل بالأفلاك والنجوم وصفات كوكب الأرض . وأدب الرحلات هو ما تستمد منه الجغرافية واقعيتها ، وبغير الرحلة لا تعبر الجغرافية عن الحقيقة . بيد أنه ينبغى أن نفرق بين الأدب الجغرافى الذى تركه لنا جغرافيون محترفون وتلك المعارف الجغرافية التى خلفها لنا الرحالون . فبينما يقوم الجغرافى المحترف برسم صورة كاملة عن المنطقة موضع الدراسة بعد أن يسأل ويستقصى ويحقق ، يكتفى الرحالة بنقل ما يشاهده فتأتى الصورة التى يرسمها حزئية ولكنها ثمينة وموحية . وكثيرا ما يزيد من ثرائها إضافة شئ من التاريخ أو من السياسة أو من عادات الشعوب تعرض فى أسلوب قصصى بديع ، وهذا ما اتصفت به مشاهد رحلات هذا العالم الأديب .

وتنقسم الدراسة إلى قسمين رئيسيين تسبقهما نظرة عامة تعرض للأدب الجغرافى الذى تعرف إليه المسعودى فى زمانه ثم تتبعها ترجمة له . ويعالج القسم الأول أدبه الجغرافى النظرى الذى نقله عن ترجمات عربية لمصنفات اليونان والهند والفرس بالإضافة إلى ما جاء فى كتب السابقين من العلماء العرب . أما القسم الثانى وهو الأهم ، فيتابع رحلاته الواسعة التى استغرقت من عمره أربعة وثلاثين عاما . وقد اختلف على أى البلاد التى زارها وتلك التى لم يزرها بل قد نعب عليه استطراداته الكثيرة وعدم رفضه للأساطير وتدوينه لآراء دون تمحيص ، ولكن لا خلاف فى أنه رحالة من طراز فريد أثرى المكتبة العربية بذخيرة ليس لها مثيل فيما بلغنا من أدب الرحلات فى التراث العربى .

أرجو أن تكون هذه الدراسة نقطة انطلاق إلى دراسات أوسع وأشمل
للأدب الجغرافي في تراثنا العربي خاصة فيما يتصل بالرحلات ، شريطة ألا
يكون الفخر فيها بالآباء دون الأمل في الأبناء .

وفي الختام لا بد لي أن أضيف كلمة عرفان بالجميل إلى كل من عاونني على
إعداد هذا العمل وإخراجه بهذه الصورة . وبالله التوفيق .

عبد الفتاح وهيبه
الأسكندرية في

٢٩ رجب ١٤١٥ الموافق أول يناير سنة ١٩٩٥

نظرة عامة

العرب قبل الإسلام وبعده :

كان العرب في نشأتهم الأولى يتمتعون بحس جغرافى صادق شأنهم فى ذلك شأن كل الشعوب التى تعيش بالفطرة . فقد كانوا على دراية تامة بمواقع الأشياء فى بيئاتهم ، لا تنقطع بهم السبل إليها ليلاً أو نهاراً . بل إن حياتهم البسيطة تلك أفسحت لهم مجال الملاحظة للتحقق من مواضع الخطر والهماس موارد الماء ومنابت العشب .

وتحدثنا كتب الأدب والتاريخ بما عرف عن العرب قبل الإسلام من تصورات واضحة لبلادهم ففى شعرهم ونثرهم شئ كثير من طبيعة أرضهم وصفاتها وإشارات عديدة إلى الأماكن وما بها من نباتات وحيوانات فضلاً عن ذكر طرقها ومسالكها ومضارب القبائل ومنازل القمر وأسماء الكواكب والنجوم^(١) . وليس يخفى أن الشاعر العربى هو الذى نقل لغة الطبيعة إلى لغة شعرية موسيقية تنجذب إليها الأسماع وتطرب لها النفوس . ولما كان موضع حفاوة حيثما نزل ، فقد كان الشاعر أكثر العرب تنقلاً يفد على الملوك وسادات القبائل مادحاً فيلقى كل تكريم . والعرب إلى ذلك لم يكونوا فى واقع الأمر فى عزلة عن العالم القريب والعالم البعيد . فسفهم كانت تسعى بين الهند وسواحل اليمن وعمان وقوافلهم ربطت مكة ويثرب بالشام وبلاذ ما بين النهرين واليمن فتسربت إليهم أخبار عن بلاد غير بلادهم^(٢) .

وربما ظلت هذه الثقافة بسيطة ومحدودة لو لم يمن الله على العرب بالإسلام . فقد خرجوا بعد أن ملأ الإيمان قلوبهم يدعون لدين الله ويجاهدون فى سبيله . فنصرهم الله وفتح عليهم بلاداً واسعة كانت تخضع لسلطان الفرس والروم . وقد اتسعت رقعة دولتهم فى خلال مائة عام من وفاة رسول الإسلام (ﷺ) كما لم تتسع دولة من قبل . وصارت مع الأيام عالماً واحداً مشتركاً فى الدين والثقافة . وغنى عن البيان أن الثقافة العربية بعد الإسلام تميزت بمميزات

(١) عبد الفتاح وهيب « جغرافية العرب فى العصور الوسطى » ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ١ .

(٢) شرحه .

لعل أهمها التخيّر الدقيق لغذائها بما يتفق مع روح الإسلام . فالتعرف على المكان والنظر في آيات الله التي بينها لعباده مبدأ إسلامي مستقر . فالله سبحانه وتعالى يدعو المسلمين أن ينظروا ماذا في السموات والأرض . وعملا بما أنزل الله رغب الخلفاء وعلماء الأمة وقادة الجيوش معرفة شيء من صفات البلاد التي دخلت في حوزة الإسلام . من ذلك ما ذكره الرواة من أن عمر بن الخطاب كتب إلى أحد الحكماء حين فتح الله البلاد على المسلمين من العراق والشام ومصر غيرها من البلاد . يقول : « إنا أناس عرب وقد فتح الله علينا البلاد ونريد أن نتبوا الأرض ونسكن الأمصار فصف لي المدن وأهويتها ومسالكها وكيف يؤثر الترب والأهوية في سكانها^(١) » . وفي أواخر القرن الأول للهجرة كتب عمر بن العزيز إلى واليه أن يوافيه « بصفة الأندلس وأنهارها » .

نقل الثقافات :

وبعد أن استقرت دولة الإسلام وامتد سلطانها لم يتردد العرب في نقل ثقافات أصحاب الحضارات القديمة تقديرا منهم للفكر الإنساني شريطة أن يتفق ذلك مع ما جاء في القرآن والسنة . وكان عملهم رائعا فبعد أقل من قرن على قيام بغداد (٤٠ هـ / ٧٦٢ م) كان التراجمة من كل النحل والملل قد نقلوا إلى العربية مؤلفات لأرسطو وأفلاطون وجالينوس وأبقراط وبطليموس الجغرافي إلى جانب كثير من كتب الفرس والهند . ولقد بدأ عهد جديد في تاريخ الأدب الجغرافي وخاصة الفلكي منه بتولى المأمون الخلافة (١٩٨ هـ / ٨١٣ م) فقد ازدهرت الدراسات الفلكية التي اعتمدت عليها الجغرافية الرياضية بعد أن أنشأ مرصدين مزودين بالأجهزة والكتب اللازمة ، وبعد أن أشار بإعادة ترجمة كتابي بطليموس الجغرافي « المجسطي » Magisti و « الجغرافيا » Geographike

(١) المرجع السابق ص ٤ .

ملحوظة : نظراً لكثرة الرحوع إلى كتابي المسعودي « مروج الذهب » والتسبي والإشراف « ف رمز للأول منهما بحرف م . وللثاني بحرف ت . وذلك فيما يلي من حواش .

بسبب ما حوته الترجمة الأولى من أخطاء^(١) . وبذلك أتيحت للعرب فرصة نادرة للاستفادة من كتاب « المجسطى » بعد نقده وتحقيق ما جاء فيه بالمشاهدة والاختبار . لذلك جاءت المعارف الجغرافية الرياضية في هذه المرحلة متأثرة بفكر بطليموس . لكن ما لبث هذا النمط من الأدب الجغرافى أن صار عرنى الهوية بفضل فلكيين عرب أفذاذ من أمثال عبد الرحمن الصوفى (ت ٣٧٦ هـ / ٩٨٦ م) ومحمد الفارابى (ت ٣٣٩ هـ / ٩٥٠ م) .

وربما كانت الفوائد التطبيقية للجغرافية الرياضية هذه من بين أهم العوامل التى حفزت كثيرا من رجال الدين وقادة الجيوش والتجار والمثقفين بعامة إلى معرفة شىء منها بالقدر اللازم لمطالب العبادة فعرفوا ما للشمس والقمر من ارتباط بالشرع عندما توظف فى تحديد المواقع الملكية للمدن الإسلامية ومن ثم معرفة مواقيت الصلاة وأوائل الشهور القمرية فضلا عن تحديد القبلة^(٢) .

تطور الجغرافية الوصفية :

وفيما بين القرنين الثانى والثالث للهجرة (الثامن والتاسع الميلاديين) بدأ فى الظهور نمط من الأدب الجغرافى يقدمه لغويون فى الغالب ، مهد ولاشك لنمو جغرافية وصفية .

ظهر هذا الأدب فى كتب الأنواء التى اشتملت على أشتات من الملاحظات عن الطقس وظواهر الطبيعة ومنازل القمر متبوعة بتعليقات لغوية وغير لغوية . وتمضى هذه السلسلة من كتب الأنواء متكاثرة خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة حيث دخل مؤرخون مثل أبى حذيفة الدينورى (ت ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م) حلبة المنافسة . بيد أن سيادة المنهج اللغوى على المنهج الواقعى ممثلا فى وصف الأشياء لم يحل دون ظهور رسائل وكتب تمثل إرهابات الأدب الجغرافى الوصفى ، تشتمل على خليط من الجغرافية

(١) يعبر المسعودى عن تطور صيغ المصورات فيقول: «وفى الصورة المأمونية التى عملت للمأمون .. صور فيها العالم بأفلاكه وبحومه وبره وبحره وعامره ومساكن الأمم .. وهى أحسن مما تقدمها من حفرافيا بطليموس - ت . ص ٤٦-٤٧ .

(٢) Reinaud, M. Géographie d'Aboulfeda, T.I, Paris 1848, pp. 40-47

وراجع أيضا :

Charles de la Roncière - Le découverte de l'Afrique au Moyen Âge T.1, Soc. R. de Géog. d'Egypte, Le Caire 1925, pp. 16-17..

والاثنوغرافية ، ومن أمثلة هذه الكتب « كتاب الصفات » للنضر بن شميل
(ت ٢٠٣ هـ / ٨١٨ م)

هذه البدايات المتواضعة أعقبتها تطورات متلاحقة ازدهر بفضلها هذا
الأدب حتى بلغ الأوج في القرن الرابع للهجرة (١٠ م) بفضل مدرسة
البلخي (ق. ٤ هـ / ١٠ م) التي التزمت منهج الكتابة الجغرافية كما ينبغي أن
يكون . ولعل المقدسي (ت ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م) صاحب كتاب « أحسن
التقاسيم في معرفة الأقاليم » خير من يمثل هذه المدرسة المنهجية . ولم يكن أدب
الرحلات أقل تطوراً فقد اتسع مجال الرحلة وأضاف الرحالة إلى الأدب
الجغرافي بعامة لمحات وضاعة وثراء وامتعة .

وفي هذا يقول المستشرق الروسي أ. كراتشكوفسكى . بلغ الأدب الجغرافي
في القرن الرابع للهجرة (العاشر الميلادي) أوجه في مجال تطوره الخلاق .
وهو إيزخري بمصنفات هامة .. كما شهد أكثر آثار الكرتوحرافيا العربية أهمية
وأصالة وهو أطلس الإسلام . وقد بلغ عدد الرحلات في هذا القرن حداً
كبيراً^(١) .

وإذا ما رجعنا في الزمن قليلاً إلى الوراء نجد أن توسيع المعرفة بالعالم القريب
والبعيد ، ربما كان من أبرز إسهامات العرب الثقافية على مستوى العالم . فقد
كان السفر من أجل الكشف عن المجهول أو طلباً لعلم أو رغبة في التكسب من
التجارة أو طمعا في أداء فريضة الحج من أهم الأساليب التي اتبعها العرب في
توسيع معرفتهم بديار المسلمين وبلاد الكفرة من حولهم ، فاتسع عالمهم ليضم
أقطارا لم يعرفها اليونان ولا الرومان إلا اسماً^(٢) .

وأدب الرحلات فن عربي أصيل ارتبط بحياة التنقل والترحال التي عرفها
العرب الأولون . ويشهد شعرهم ونثرهم على ما خبروه ولمسوه عندما كان يعم
الخير بهطول الغيث وعندما يسود الأمحال بانقطاعه .

(١) عبد الفتاح هيبه « الجغرافية والثقافة الإسلامية » ، المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول ، الرياض
١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ، المجلد الثالث ، ص ٤١٧ .

(٢) كراتشكوفسكى « تاريخ الأدب الجغرافي » ، ترجمة صلاح الدين هاشم ، القاهرة ١٩٦٢ ، ج
١ ، ص ٢٣ .

(٣) عبد الفتاح هيبه « جغرافية العرب في العصور الوسطى » ، مجامع سابقى ص ٣ .

وفي السنوات العجاف تلك نجدهم وقد هجروا مضاربهم إلى أكناف المدن وإلى مواضع المياه الشحيحة . وقد تمتد سنوات الجفاف وتعم سائر الإقليم ، وعندئذ تضطر القبائل إلى هجر ديارها إلى أرض بعيدة تختارها دار إقامة إلى حين . ولم تكن حياتهم مع ذلك مقصورة على الرعى المتنقل فقد اشتغلوا بنقل المتاجر عبر فيافي الجزيرة العربية . ولا نبعد عن الصواب إذا ما قلنا إنهم كانوا حداة إبل ورعاتها كذلك . وحيثما طافت البحار بجزيرة العرب سعت السفن بين موانئها وموانئ بلاد فارس والعراق ومصر حاملة عروض التجارة والمسافرين فازدادت المعرفة بالعالم القريب . حتى إذا ما بزغ نور الإسلام وامتد ليشمل بقاعا واسعة في الشرق والغرب صار العرب حملة الدين الخاتم سادة في البر وفي البحر .

التجارة وانتشار العرب بعد الإسلام :

وربما كانت التجارة بعد ظهور الإسلام من أقوى الأسباب التي عاونت على اتصال الشعوب وازدياد المعرفة بالعالم المعمور^(١) ، بل أغرت جماعات من التجار العرب على الإقامة في بلاد بعيدة وكان لبعضهم شرف نشر الإسلام بالأسوة الحسنة .

فعلى ساحل بحر الزنج في الغرب قامت مدن إسلامية أنشأها عرب من جنوبي الجزيرة العربية نذكر منها مقديشو وزنجبار وبراوة وممبسة . وفي شبه القارة الهندية عاشت جاليات عربية ضخمة في مدينة صيمور Saimur قرب بمباي ، وفي مدينة الديبل في إقليم السند الإسلامي .

وتشير المصادر التاريخية إلى وجود تجار عرب نزلوا ثغور الصين خاصة مدينة خائفو إبان القرنين الثاني والثالث الهجريين (الثامن والتاسع الميلاديين) . ومن المعروف أن عدد الرحلات التجارية للصين إلى موانئ الخليج (مسقط وسيراف والبصرة) انخفض مع بداية القرن الثالث للهجرة (٩ م) على حين زاد سفر التجار العرب إلى البحار الجنوبية^(٢) .

(١) Kramers, J.H., Geography & Commerce, Legacy of Islam (ed.) T. Arnorld and A. Guillaume, Oxford University Press, 1947, pp. 92-94.

(٢) المرجع السابق ص ٩٤-٩٥ .

وكانت التجارة بعد ذلك دافعا قويا إلى انصراف تجار عرب إلى الهند والصين وربما أبعد شمالا وإلى شمالي أوروبا وإلى ديار المسلمين في آسيا ثم إلى ساحل الزنج والسودان ، ومع التجارة انتقل الإسلام ومعه اللغة العربية لغة القرآن الكريم .

أدب الرحلات الذى تعرف إليه المسعودى :

وقد يكون من المفيد فى هذا المقام أن نعرض فى إيجاز لأدب الرحلات الذى اطلع عليه المسعودى وينتمى إلى القرون الهجرية الثلاثة التى سبقت ظهوره جغرافياً ومؤرخاً رحالة مع إضافة النصف الأول من القرن الرابع للهجرة الذى قام فيه بجولاته فى بلاد المسلمين وغير المسلمين . وما من شك فى أنه استوعب ما ذكره الرحالة السابقون خاصة ما يتصل بالصين والبحر الحبشى (المحيط الهندى) وساحل الزنج .

وإذا كانت حياة الارتحال أسلوب حياة جُبِلَ عليه ساكن الجزيرة العربية قبل الإسلام فإنه تنوع فى ظل الإسلام بتنوع الدوافع والخوافز الدينية والسياسية والعلمية والاقتصادية . فالحج وخروج السفارات إلى بلاد أجنبية لاستكشاف المجهول من أحوال الشعوب الكافرة والسفر للتفقه فى الدين وركوب البحر وقطع البر فى رحلات تجارية واسعة ، كل ذلك كان من آثار قيام دولة الإسلام . ومع ذلك ورغم كثرة الرحالة وجوائى الآفاق وتنوع أهدافهم فإن قلة منهم هى التى حرصت على تسجيل تجاربها ومشاهد رحلاتها لفائدة الأجيال اللاحقة .

وفى هذا الخصوص فإن عدد الكتب أو الرسائل التى تضمنت رحلة بعينها نعرف منها إلى هدفها وبدايتها ونهايتها مكاناً وزماناً فى الفترة موضع الدراسة قليل نسبياً . نذكر منها على سبيل المثال رحلة ابن وهب القرشى إلى الصين سنة ٢٥٦ هـ / ٩٢١ م . هذه الرحلات وإن التزم القائمون بها بوصف الواقع إلا أنها مع ذلك لم تبتعد تماماً عن ذكر الخرافات والأساطير . وسنعود إلى أخبار هذه الرحلات فى الصفحات التالية .

وقد اختلفت عما سبق رحلات قام بها جغرافيون بحثاً عما وراء المعلوم . كانت رحلات واسعة شاقة انتظمت بلاد المسلمين فى الغالب حرص القائمون

بها على تصوير الواقع اعتماداً على المشاهدة والاستخبار . كما اهتم المسالكيون منهم بوصف الطرق التي كانت تخترق العالم العربى لتربطه ببقية بيلاذ الإسلام وبيلاذ الكفر المحيطة .

وعلى الرغم من الموضوعية التي التزم بها هؤلاء الجغرافيون من أبناء القرنين الثالث والرابع للهجرة (٩ ، ١٠ م) إلا أنهم كما يقول شوقي ضيف « اتبعوا طريقة ممتعة فى وصف عالمهم والعوالم المحيطة بهم إذ عُنوا بالحديث عن عادات الأمم والشعوب وطباعها وآثارها وقصوا ما عندها من أساطير وخرافات » (١) .

هذا عن الذين ارتحلوا وسجل التاريخ أسمائهم ، أما أولئك الذين اختاروا حياة السفر سبيلاً إلى طلب العلم أو نشره أو وسيلة إلى الإسترزاق من التجارة ، وتجاهلهم التاريخ ، فإن أعدادهم خلال هذه الفترة تكاد لا تحصى .

وإذا ما صرفنا النظر عن التجارة والتجار ، فإن العصر الذهبى للحضارة العربية (فى القرنين الثالث والرابع) للهجرة شهد إقبلاً غير مسبوق على التعليم استيعاباً لثقافة العصر بما لا يتعارض مع تعاليم الدين . ولترك أحد المستشرقين الذين انبهر بحضارة العرب فى هذا العصر يحدثنا عن انطباعاته بهذا الخصوص . « إن بغداد وهى فى أوج عظمتها قد اجتذبت إليها أشياء أخرى غير التجارة المادية . ذلك أنها أصبحت ردهاً من الزمن مركز الثقافة العربية . ولم تحدث فى تاريخ المدينة حركة أكثر روعة من ذلك الشغف الفجائى بالثقافة الذى حدث فى جميع أنحاء العالم الإسلامى . فكان كل مسلم من الخليفة إلى الصانع ، يبدو كأنما اعتراه فجأة شوق إلى العلم وظماً إلى السفر ، وكان ذلك خير ما قدمه الإسلام . وكان تهافت طلاب العلم على مركز مثل بغداد ومن بعدها المراكز الأخرى . شبيهاً بذلك التيار الحديث من العلماء الأوربيين الذين كانت تموج بهم الجامعات بحثاً وراء العلم الجديد ، بل لقد كان أكثر منه روعة » . ويضيف « أما المساجد وهى التي كانت ومازال بعضها — جامعات الإسلام ، فإنها عجت بالطلبة الذين ملأهم الرغبة فى العلم وقد جاءوا للاستماع إلى محاضرات العلماء فى علوم الدين والشريعة .. والطب والرياضة .

(١) شوقي ضيف ، الرحلات ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ١٩٨٧ ، ص ١٢

وقد جاء العلماء أنفسهم من جميع أرجاء العالم الذى كان يتكلم اللغة العربية»^(١).

أنواع الرحلات :

ونلتقى ابتداء من النصف الأول من القرن الثالث للهجرة (التاسع الميلادى) بأخبار رحلات علمية واستكشافية وتجارية وغيرها من الأنواع . وما من شك فى أن المسعودى المشهود له بسعة الإطلاع كان على علم بأخبار كل تلك الرحلات التى تمت قبل عصره والتى أضافت الكثير إلى ثقافته العريضة . فى مطلع هذه الفترة نقرأ عن رحلات علمية ذات أهداف عملية فى معظم الأحوال . نذكر منها البعثة التى أوفدها هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣ هـ / ٧٨٩-٨٠٩ م) إلى بلاد اليمن بهدف معرفة من أين يأتي العنبر الذى كان سلعة ترفيه فى ذلك الزمان . وقد عادت البعثة بعد أن حققت هدفها وبعد أن استقصت أحوال سكان عدن وخاسك على ساحل المهرة وغيرها من الأماكن المأهولة بجنوى جزيرة العرب .

واقترنت بحفيد هارون الرشيد وهو الخليفة الواثق (٢٢٧-٢٤٢ هـ / ٨٤٢-٨٤٧ م) رحلتان استكشافيتان باعثهما خيالى اشترك فيهما رياضى شهير هو محمد بن موسى (ت ٢٥٩ هـ / ٨٧٢ م) . تهدف الأولى إلى فحص كهف الرقيم وخبر أهل الكهف ، وتهدف الثانية إلى استكشاف سد يأجوج ومأجوج . وقد توجهت الرحلة الأولى إلى قرب عمورية (فى آسيا الصغرى) بعد الحصول على موافقة إمبراطور بيزنطة . وقد أثبت المسعودى أخبار هذه الرحلة فى كتابه « مروج الذهب »^(١) . أما الرحلة الثانية فكانت رحلة سلام الترجمان فى حوالى عام (٢٢٧-٢٢٨ م / ٨٤٢-٨٤٣ م) إلى الأصقاع الشمالية بغرض اكتشاف سد يأجوج ومأجوج^(٢) ومعرفة ماذا حدث له بعد أن تراءى للخليفة فى المنام كأنما انفتح ليتسرب منه يأجوج ومأجوج ليفسدوا فى الأرض^(٣) . وقد اتجه سلام إلى بلاد أرمينية وعبرها إلى بلاد الكرج

(١) S. Lane-Pool. The Golden Age of the Arab Civilization- History of the World, (Ed.), G.A. Hamerton, Vol. 4, London 1950, pp. 603-618.

(٢) م. ج ١ ، ص ٣١٤ .

(٣) ياقوت الحموى — معجم البلدان ، بيروت ١٩٧٩ ، الجزء الثالث ، ص ١٩٩-٢٠٠ .

(جورجيا حديثا) ومنها إلى بلاد الخزر (في الحوض الأوسط لنهر الفلجا)
ثم اتجه إلى بحيرة بلقاش وبلاد جنغاريا ، ومن هناك عاد إلى العراق مارا
بسامراء . ومن المرحح أنه أبصر سد القوقاز المشهور عند مدينة الباب أو باب
الأبواب (درنبد حديثا) ، وثمة من يرى أنه ربما بلغ سور الصين العظيم .

ومن الحوادث ذات الأهمية في زيادة المعرفة بالدولة البيزنطية تلك التي
وقعت أيام الواثق حادثة افتكاك مُسلم الجرمي من أسر البيزنطيين في الحرم
من عام (٢٣١ هـ / سبتمبر ٨٤٥ م)^(١)

وحفظ لنا المسعودي قصة اطلاقه ووصفه بأنه كان ذا معرفة بالثغور والروم
وبلادهم وألف كتابا في أخبارهم وأخبار ملوكهم وبلادهم وطرقها ومن
جاورهم من الممالك^(٢) . ويلحق بالرحلات العلمية بعثة ابن فضلان إلى بلاد
البلغار سنة (٣٠٩ هـ / ٩٢١ م) . والبلغار شعب يسكن الحوض الأوسط
من نهر أتل (الفلجا) وكان أكثرهم ينتحل الإسلام قبل رحلة ابن فضلان .
وسبب خروج هذه البعثة أن ملك البلغار أسلم وكتب للخليفة العباسي المقتدر
بالله أن يبعث إليه من يفقه في الدين .. وبنى له مسجدا وينصب له منبرا
ليقيم عليه الدعوة في جميع أقطار المملكة . فاستجاب الخليفة لطلبه وأرسل إليه
بعثة كان ابن فضلان فيها المتفقه في أمور الدين . خرجت البعثة من بغداد في
عام (٣٠٩ هـ / ٩٢١ م) متجهة إلى بخارى فخوارزم فبلاد البلغار . ومما
ينبغي ذكره هنا أن المسعودي كان في هذا الوقت يطوف بلاد بحر قزوين .
وقد وصف ابن فضلان رحلته في رسالة كانت عوناً لمعاصريه ومنهم المسعودي
ومن جاء بعده من الرحالة في التعرف إلى حضارة البلغار وعاداتهم
وتجاراتهم^(٣) . ومما أقلقه أثناء إقامته بينهم أن يرى الرجال والنساء ينزلون النهر
فيغتسلون .. لا يستتر بعضهم من بعض ، وقد اجتهد في منع ذلك فلم يوفق .
ثم إنه عرض في رسالته لطول الليل شتاء وطول النهار صيفا في هذه الأصقاع

(١) كراتشكوفسكى ، تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، القاهرة ١٩٦٢ ، ج ١ ، ص ١٤٠-١٤١ .
(٢) عن الأفدية بين المسلمين والروم راجع كتاب « التتبيه والأشراف » للمسعودي ، مرجع سابق ،
ص ١٧٦-١٨٢ .
(٣) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، بيروت ١٩٧٩ ، ج ٢ ص ٤٨٥-٤٨٦ .

الشمالية ، وكيف أنه تعذر عليه تحديد ساعات الصلاة^(١) . وقد حفظ لنا ابن خرداذبة أخبار هذه الرحلة .

هذا عن الرحلات العلمية والسفارات وحادثة من حوادث افتكاك الأسرى . أما الرحلات التجارية فنذكر منها رحلة ابن وهب القرشي ورحلة التاجر سليمان وما أضافه أبو زيد السيرافي إليها مما نقله عن أصحاب المراكب وربما عن بيانات الرحالة الرام هرمزى (ت ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م) أيضا^(٢) . وكان ابن وهب رجلا ثريا ذا شأن في العراق . خرج من سيرا في إلى الصين في نحو عام (٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م) بعد أن خرب الزنج البصرة . وانتهت رحلته عند خانفو (كانتون) بمملكة الصين . ثم تقدم إلى مدينة خمدان عاصمة المملكة وهي تقع على مقدار شهرين من خانفو . وهناك التمس مقابلة الامبراطور فأذن له بعد انتظار طويل . وعندما قابله ادعى قرابته لنبي المسلمين فأمر له بالهدايا النفيسة وأوصى به حاكم خانفو . وقد أشار المسعودى إلى هذه الرحلة^(٣) .

ومن التجار العرب الذين زاروا الهند والصين عدة مرات في القرن الثالث للهجرة (التاسع الميلادى) تاجر يدعى سليمان . ولا نكاد نعرف شيئا عن نسبه ولا سيرته الذاتية . وتعد رحلاته من أهم الآثار العربية عن الملاحة في المحيط الهندى وبحر الصين في زمانه^(٤) . ولعلها كانت أهم الرحلات العربية

-
- (١) زكى محمد حس — الرحالة المسلمون ، القاهرة ١٩٤٥ ، ص ٢٩ .
- (٢) الرام هرمزى : برزك بن شهریار الناخذاه ، كتاب عجائب الهند وجزائره وجزائره . نشر النص مع الترجمة الفرنسية له P.A. Von Derlith ، لندن ١٨٨٣ . وُصف الرام هرمزى عجائب البحار وما سمع عنه من جزائرها وما رآه فيها وكتب بيانات عن الصين وسومطرة وجاوة والحبشة ومدغشقر ، وقد أفاد. منها المسعودى من خلال أبى زيد السيرافى — راجع كتاب الجغرافية العربية ، س.م. ضياء الدين علوى ، تحقيق وتعريب الدكتور عبد الله يوسف الغنيم والدكتور طه محمد جاد ، الكويت ١٤٠١ هـ / ١٩٨٠ م ، ص ٧٤ — بدل العربان جهودا مشكورة وغير منكورة .
- (٣) أشار المسعودى إلى هذه الرحلة (رحلة ابن وهب القرشى) في « مروج الذهب » ، ج ١ ص ١٤٢ .
- (٤) بقيت رحلات سليمان إلى الهند والصين مع الذيل الذى ألحقه أبو زيد السيرافى بها زمنا المصدر الذى يرجع إليه الكثير من الجغرافيين والمؤرخين .

التي تحدثت عن سواحل الصين والطريق البحرى إليها من واقع الخبرة الشخصية مع التزام بالموضوعية^(١).

ففى تلك الفترة كان المحيط الهندى هو مجال المغامرات التجارية أما قاعدته ففى الخليج العربى حيث موانى مسقط وسنجان وسيراف والبصرة .

وقد انتهى إلينا ما كتبه هذا التاجر مذيلا بقصص الرحالة والتجار فى بحار الصين أضافها فى القرن الرابع للهجرة (١٠ م) أبو زيد السيرافى كما أحناء، وهو قارىء للكتب جامع للمعلومات . كانت معلومات يتسقطها فى الغالب من النواخذة والرحالة والتجار الذين كانوا يركبون البحر الحبشى (المحيط الهندى) فى طريقهم إلى الهند والصين . وإلى جانب وصف طرق التجارة فإن رسالة سليمان والذيل الذى أرفقه أبو زيد تحدثا عن بعض العادات والنظم الاجتماعية والاقتصادية ، ووصفا منتجات الهند وسرنديب (سيلون) وجاوة والصين مع أقل قدر من الخرافات والأساطير . والثابت أن أبا زيد كان على صلة بالمسعودى ، فقد أشار الأخير فى كتابه « مروج الذهب » إلى أنه قابله وتبادلا أخباراً حول طرق التجارة البحرية فى المحيط الهندى وبحر الصين وتناقشا فى معلومات عن الهند والصين وجزائر الياقوت والذهب والتوابل والأفاويه التى تنتشر فى البحر الحبشى^(٢) .

وإذ نعود إلى رسالة سليمان وإضافة أبى زيد إليها نجد أنهما حرصتا على توضيح علاقة المسلمين بالصين إبان القرنين الثالث والرابع للهجرة (التاسع

(١) راجع فيما يتصل بالملاحة والتجارة فى المحيط الهندى والخليج العربى :

Huzayyin, S.A Arabia & the Far East, "Their Commercial & Cultural relations in Greco-Roman and Irano-Arabian Times" Cairo 1972.

جورج حوراني ، العرب والملاحة فى المحيط الهندى ، ترجمة يعقوب بكر ، القاهرة ١٩٥٨ ، انظر أيضا : Kramers, J.H., Geography & Commerce. مرجع سابق .

حسين فوزى ، المعارف العربية الملاحية فى العصور الوسطى ، الفصل السادس من كتاب أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية ، القاهرة ١٩٧٠ .

نميس أحمد ، جهود المسلمين فى الجغرافية ، ترجمة دكتور فتحى عثمان ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ١٢٩-١٤٣ . أصاف المترجم إضافات لها قيمتها فى مجال الجغرافية التراثية .

(٢) سليمان التاجر وأبو زيد السيرافى ، سلسلة التواريخ ، طبع ونشر النص المستشرق الفرنسى لانجل Langles فى مجلدين تحت عنوان Chaine des Chroniques سنة ١٨١١ م — تحدث المسعودى عن لقاءه بأبى زيد السيرافى فى م ح ١ ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

والعاشر الميلاديّين) . فضلا عن ابداء ملاحظات طريفة وذكر أخبار الهند وسائر الأقاليم المطلة على المحيط الهندي وبحر الصين . من ذلك أن مدينة خانفو أكبر أسواق الصين حيث ذو مقصد التجار المسلمين من عرب وعجم ، كان فيها رجل مسلم « يوليه صاحب الصين الحكيم بين المسلمين الذين يقصدون تلك الناحية .. وإذا كان في العيد صلى بالمسلمين وخطب ودعا لسلطان المسلمين » (١) .

ويقول زكى حسن أنه « بالرجوع إلى المصادر الصينية نجد أنها تشهد بوجود هذا النوع من الحريات والامتيازات وبأنه امتد ليشمل جاليات إسلامية تعيش في سائر مدن الصين . فكان لكل منها قاضيها وشيوخها أو مساجدها وأسواقها » . وفي هذا إثبات صدق كثير مما أخبر به سليمان عن أحوال الصين الاجتماعية في صدر الإسلام . وقد أثرى سليمان حديث الرحلة بملاحظات طريفة فهو أول رحالة عربى يشير إلى الشاى الصينى بقوله « وملك الصين يحتفظ لنفسه بالدخل الناتج من محاجر الملح ومن نوع من العشب ، يشربه الصينيون في الماء الساخن ويبيع منه الشيء الكثير في جميع مدنهم ويسمونه (ساخ) » . ويقول أيضا في عادات أهل جزائر المحيط الهندي « ودخلهم النارجيل وبه يتأدمون ويدهنون وإذا أراد واحد منهم أن يتزوج ، لم يتزوج إلا بقحف رأس رجل من أعدائهم » (٢) .

وقد حفظ لنا القزوينى وياقوت مقتبسات من وصف أبى دلف مسعد بن مهلهل لرحلته في الصين والهند في نحو عام (٣٣١ هـ / ٩٤٢ م) . لكن ليس ثمة ما يشير إلى أن المسعودى الذى نزل مصر في نفس العام قد أطلع على أحداثها ، لذلك ليس ثمة ما يدعونا إلى عرض ما جاء في هذه المقتبسات . ونكتفى بما سبقت الإشارة إليه والخاص برحلة سليمان وإضافة أبى زيد .

وفي الختام لا نضيف جديداً إذا ما قلنا إن الجغرافية العربية التراثية كانت نمطا من الثقافة الأدبية شأنها في ذلك شأن التاريخ . وهذا يفسر سبب تزايد الاهتمام بالكتابة الجغرافية . فالمعارف الجغرافية كانت لا تقل أهمية في تكوين

(١) زكى محمد حسن ، الرحالة المسلمون ، القاهرة ١٩٤٥ ، ص ٢٥ .

(٢) كتاب سلسلة التواريخ — مرجع سابق ص ١٦-٤١ .

المثقف العربى عما كان يلم به من غيرها . فكان أفضل ما يرغب الإحاطة به إلى جانب شىء من الجغرافية والفلك شىء من الشعر وأنساب العرب والسيرة النبوية وأخبار فتوح الإسلام وتواريخ الخلفاء . لذلك لم يكن غريباً أن نسمع عن الأديب الجغرافى والمؤرخ الجغرافى والفقيه الجغرافى . ويمثل الجاحظ وهو من أشهر أدباء العربية وأوسعهم ثقافة ، الجغرافيين الأدباء . فقد ضمن كتبه خاصة كتاب « الحيوان » و « البيان والتبيين » كثيراً من المعلومات الجغرافية . بل لقد كتب رسالة قيمة فى الجغرافية التجارية أطلق عليها « التبصر بالتجارة » ، لم تفقد قيمتها كمصدر من مصادر البحث فى الجغرافية التاريخية للتجارة العربية . أما ظهور التاريخ والجغرافية فى الأدب العربى معاً وفى آن واحد كما فى كتابات المسعودى وغيره من الجغرافيين فلأنهما فرعان متلازمان فى شجرة المعارف الإنسانية التى كانت تسمى الأدب بصورة عامة^(١) .

(١) حسين مؤنس ، الجغرافية عند المسلمين وتراث الهنود والفرس واليونان ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ١٩٥٩-١٩٦٩ ، ١٩٩-٣٥٩ .

المسعودى

سيرته :

هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي ، يرتفع نسبه إلى الصحابي عبد الله بن مسعود ، ويرجح أنه ولد نحو عام (٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م)^(١) . وكانت بغداد التي نشأ فيها وعرفها في شبابه تعيش أزهى عصور الحضارة العربية^(٢) ، وذلك بالرغم مما طرأ على الخلافة الإسلامية من وهن وتفكك سياسى بعد وحدة . فقد صار المسلمون - وفي مقدمتهم العرب - يشكلون عالما واحدا مشتركا في الدين والثقافة .

وبعد أن نال قسطا من علوم القرآن والسنة واللغة ، خرج وهو لا يزال في مقتبل العمر يطوف ديار المسلمين من عرب وعجم ، بل جاوزها إلى بلاد الهند وبحر الصين وساحل الزنج . وكان تطوافه واسعا وطويلا استغرق من عمره نحو أربعة وثلاثين عاما جمع فيها مشاهد رحلاته وتجاربه ، كما أحاط خلالها بالتراث الأدبى ومختلف العلوم في زمانه . من هذه المصادر جميعا استمد محتويات مصنفاته التي بلغ عددها على الأرجح ستة وثلاثين مصفا تتضمن كل الفنون التي رغب في معرفتها العرب^(٣) .

ومن أسف أن كل هذه المصنفات فقدت إلا من كتابين هما « مروج الذهب » و « التنبيه والاشراف » . ويلفت انتباه كل من يطالع الكتاب الأول منهما وفرة المصادر التي رجع إليها وإن يكن دون توثيق فقد بلغ عدد المصادر التي استعان بها نحو مائة وخمسة وستين مصدرا منها العربية الصرفة والمنقولة إلى العربية^(٤) . هذا بالإضافة إلى أخبار ما شاهده وعايته وهو كثير . وإن دلت

(١) ابن النديم - الفهرست ، طبع بمصر ، ص ٢١٩ .

ابن شاكر ، فوات الوفيات ، طبع بمصر ، ج ٢ ، ص ٩٤ .

(٢) يقول آدم متر « في القرن الرابع الهجرى قويت روح الاستطلاع العلمى فأخذت أصابعها تمتد متلمسة الحقائق من كل ناحية » ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده ، القاهرة ١٩٤١ ، ج ٢ ، ص ٦٠٤ .

(٣) عن مصنفاته انظر الملحق رقم (١) .

(٤) Al-Mas'udi, The Encyclopaedia of Islam, New Edition, Leiden, 1991, Vol. VI, pp. 785-87.

كثرة مؤلفاته ووفرة مصادره على شيء فإنما تدل على تنوع اهتماماته وغزارة علمه وقبل ذلك حيويته المتدفقة .

ومن مصنفاته التي يعتز بها ولا ينفك يشير إليها في تضاعيف كتابيه المشار إليهما : كتابه الضخم « أخبار الزمان » بأجزائه الثلاثين ، و « الكتاب الأوسط » . وقد بسط فيهما ما أوجزه في « كتاب مروج الذهب » . وكان « كتاب التنبيه والإشراف » آخر مصنفاته وفيه أوجز بعض ما جاء في « كتاب مروج الذهب » . وربما كان حرصه على إيجاز ما سبق أن بسطه في كتابيه الكبيرين « أخبار الزمان » و « الكتاب الأوسط » رغبته القوية في ذبوع أفكاره ومعارفه وأخبار رحلاته ، وربما لإحساسه بصعوبة تداول كتابيه المشار إليهما لضخامة حجمهما . وفي هذا يقول « ورأينا إيجاز ما بسطناه .. في كتاب لطيف (مروج الذهب) نودعه لَمَع ما في ذَيْنِكَ الكتاين مما ضَمَّنَّاهما وغير ذلك من أنواع العلوم وأخبار الأمم الماضية والإعصار الخالية مما لم يتقدم ذكره فيهما »^(١) . ومن القدماء الذين رجعوا إلى مؤلفاته وخصّوه بالتقدير : ياقوت الحموي وابن خلدون الذي لقبه « بإمام المؤرخين » والنويري .

وقد صدر كتاب « مروج الذهب » لأول مرة في بولاق عام (١٢٨٣ هـ / ١٨٦٦ م) ثم صدرت له طبعة ثانية عام (١٣١٣ هـ / ١٨٩٥ م) . وفي أواخر العقد الرابع بعد التسعمائة وألف ميلادية توفر محيي الدين عبد الحميد على نشره في طبعة محققة صدرت في القاهرة عام (١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م) . ثم قام يوسف داغر بإصدار طبعة حديثة منه في بيروت عام (١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م) . أما كتابه الثاني « التنبيه والإشراف » فقد ظهرت طبعته الأولى في لندن عام (١٣١٢ هـ / ١٨٩٤ م) ، ثم توالى أمر نشره في القاهرة (١٩٣٨) بعد أن حققه عبد الله الصاوي محمد . وفي عام (١٤٠٢ هـ / ١٩٨١ م) قامت مكتبة ومطبعة دار الهلال في بيروت بنشره في طبعة أنيقة .

(١) انظر محتويات كتابيه « مروج الذهب » و « التنبيه والإشراف » في الملحقين رقم (٢) ورقم (٣) .

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر انصرفت جهود بعض المستشرقين إلى النظر في أعمال المسعودي . منهم ج. كرامرس الذي قال عنه بشيء من المبالغة « إنه أكثر الكتاب الجغرافيين أصالة » ، ومن قبل غني أ. سبرنجر A. Sprenger بنقل كتاب « مروج الذهب » إلى الإنجليزية ، وطبع الجزء الأول منه بلندن عام (١٢٥٧ هـ / ١٨٤١ م) . وقام في وقت لاحق المستشرقان باريه دي مينار Barbier de Meynard ، وباف دي كورتبي Pavet de Courteille بنقله إلى الفرنسية في تسع مجلدات ، طبعت بباريس في الفترة بين (١٢٧٨-١٢٩٤ هـ / ١٨٦١-١٨٧٧ م) . أما كتابه الثاني « التنبيه والإشراف » فقد نشر في ليدن في العقد الأخير من القرن التاسع عشر ثم نقله إلى الفرنسية كارا دي فو Carra de Vaux وصدر بباريس سنة (١٣١٥ هـ / ١٨٩٧ م) .

ومن المؤسف أنه لم يحظ من المثقفين العرب في الوقت الحاضر بما يليق به من اهتمام على الرغم من أنه يمثل بثقافته عصراً بكامله . فكل ما كُتب عن آثاره في العربية يدخل في أغلبه في باب الدراسات العامة التي تنشرها بعض الدوريات أو الحوليات أو قد تضمها كتب صغيرة تقدم زاداً ثقافياً للقارئ العادي .

وربما كان دور علماء جامعة عليكرة الإسلامية بشمالى الهند والكلية الإسلامية بكلكتا في دراسة بعض الموضوعات التي احتوتها مصنفاته أهم الأدوار التي تقوم بها مؤسسات علمية إسلامية^(١) . ونخص بالذكر من بين هؤلاء محمد شافي ومقبول أحمد ونفيس أحمد وضياء الدين علوى . ولا تقل إسهامات المستشرقين أهمية مقارنة بما قدمه في هذا المجال هؤلاء نفر من علماء مسلمى الهند . ويأتى في مقدمة المستشرقين الذين أولوه اهتماماً كجغرافى رحالة أ. كراتشكوفسكى I. Krachkovski^(٢) .

وقد تنوعت المعارف الجغرافية التي استقاها هذا الموسوعى من مشاهداته أثناء رحلاته ومن نقوله عن مصنفات السابقين والمعاصرين على حد سواء .

(١) في أوائل عام ١٩٥٨ احتفلت جامعة عليكرة بمرور ألف عام على وفاة المسعودي . وصدر بهذه المناسبة كتاب بعنوان Al-Masûdi Millinary Commemoration, Volume, 1950 .

(٢) أ. كراتشكوفسكى ، مرجع سابق ح ١ ، ص ١٧٥-١٨٦ .

وهو في كل ذلك يجمل معارف العصر ويسجل تطور الفكر البشرى . ولما كان أدبيا مؤرخا قبل أن يكون أدبيا جغرافيا فقد جاء أدبه الجغرافى مدخلا لتواريخه التى حفلت بها صفحات مؤلفيه موضع الدراسة ذلك أن الجغرافية والتاريخ كانا عند العرب فرعان متلازمان فوق أنهما من الأدب . وهذا ربما يفسر سبب اختلاف أدبه الجغرافى عن أدب الجغرافيين الرحالة الذين كتبوا بطريقة منهجية فى وصف دار الإسلام ويمثلهم فى ذلك أصدق تمثيل المقدسى (ت ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م) صاحب كتاب « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » (١) .

ومع ذلك فإنه على الرغم من غياب منهج واضح لهذا الأدب المسعودى وكثرة ما به من استطرادات قد تشتت ذهن القارئ إلا أنه أدب يتميز بالحوية والثراء والجدة . وهذا ما سوف يكتشفه من يقرأ كتابه الشهير « مروج الذهب » فهو كما يصفه نيقولا زيادة كتاب « سياحة ومعرفة جغرافية وعمران وعلم وأخبار » (٢) .

وإذا كان قد كتب بدون إسناد فهو كثيرا ما يعتمد إلى ذكر مختلف الآراء إذا عرض لظاهرة معينة . وحينما يجد تعارضا ينسب القارئ إلى ذلك بقوله « تنازع من سلف وخلف » ، وعادة ما يقف موقفا محايدا من هذه الآراء أو النظريات إلا إذا تعارضت مع ما جاء فى القرآن والسنة . وهو إلى ذلك معتد بنفسه كرحالة من جوائى الآفاق ، يصف ما حفلت به رحلاته من مشاهد امتزج فيها التاريخ بالجغرافية والأدب بالسياسة والخيال بالواقع . والمسعودى قبل ذلك قارئ نهم وكاتب غزير الإنتاج ، يستشهد على قيمة القراءة والكتابة فى الإسلام بقول الله سبحانه وتعالى « اقرأ باسم ربك الذى خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » (سورة العلق : آيات من ١-٥) . ثم إن الكتاب عنده هو نعم المجلس ، وهو مؤنس ينشط بنشاط المرء وينام بنومه .

(١) كان يبدأ بتقسيم منطقة الدراسة إلى أقاليم أو تحديد موقع المنطقة من العالم المعمور ثم يذكر أهم المظاهر الفيزيوجرافية فى كل إقليم ، يلى ذلك عرض للمدن وما بها من نشاط اقتصادى واجتماعى ثم تسجيل لعادات وطباع السكان وأعمالهم ثم ينتهى بعرض لإنتاج الإقليم من الغلات النباتية والمعدنية .

(٢) /نيقولا زيادة ، الرحالة العرب ، مجموعة الألف كتاب ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٤٧ .

على أن العلم الصحيح عنده هو الذى عماده المعاينة والتجربة والاستقراء . وهو يعيب على من يقوم بالتدوين دون أن يكون قد شاهد وعاین وتقصى أنه مقصر فى حق العلم . وفى هذا يقول وهو الرحالة الأشهر « وليس من لزم جهة وطنه وقنع بما تُمى إليه من الأخبار عن اقليمه كمن قَسَمَ عمره على قطع الأقطار ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار ، واستخراج كل دقيق من مَعِدِنه وإثارة كل نفيس من مَكْمَنه »^(١) . ولكن ليس مجرد وصف المشاهد بكاف إذا ما أردنا التدقيق . فيعاب على أدب رحلاته أنه رغم ثرائه قد يصعب على القارئ أن يتبين متى ارتحل وأين نزل أول ما نزل ؟ فضلا عن أنه ليس من السهولة بمكان تحديد أى أقطار قطعها وأى البحار ركبها فعلا لا قولاً . ومع ذلك فقد نظلمه إذا اتهمناه بالغموض طالما أننا لم نُحِط علما بما تضمنه كتابه المفقود المترجم « بكتاب القضايا والتجارب » ، وقد بسط فيه وصف رحلاته وتجاربه كما يقول .

ونختتم هذه الترجمة بما ختم به كتابه « مروج الذهب » بقوله « وجميع ما أوردناه فى هذا الكتاب لا يَسَعُ ذوى الدراية جهله ولا يعذر من تركه . فلقد جمعنا ما فيه فى عِدَّة السنين باجتهاد وتعب عظيم وجولان فى الأسفار وطواف فى البلدان من الشرق والغرب فى كثير من الممالك غير مملكة الإسلام . فمن قرأ كتابنا هذا فليتدبره بعين المحبة وليتفضل بهمته باصلاح ما أنكر منه مما غيره الناسخ وصحَّف الكاتب .. جعلنا الله ممن يؤثر طاعته .. تم يتعمدنا بفضله إنه جواد منان »^(٢) . وقد انتقل إلى جوار ربه عام ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م ودفن بالفسطاط .

(١) م ح ١ ، ص ١٢ .

(٢) م . ج ٤ ، ص ٣٨٦ ، ٤٠٩ .

القسم الأول
الأدب الجغرافي النظرى

يعرض هذا الأدب للمسائل الفلكية وما قيل حول شكل الأرض وحركاتها وظاهراتها الطبيعية فضلا عن آثار البيئة في الإنسان . وقد نقل المسعودي هذا الأدب عن كتب متنوعة أشد التنوع . فهي تضم ما اشتهر من ترجمات كتب الحكماء اليونان ومصنفات علماء الروم والهند والفرس بالإضافة إلى المصنفات العربية . وفي هذا يقول متفاخرا : وإني أتيت بالتفصيل على جميع تسمية أهل الأعصار من حملة الآثار ونقلة السير والأخبار وطبقات أهل العلم من عصر الصحابة ثم من تلاهم من التابعين وأهل كل عصر على اختلاف أنواعهم وتنازعهم في آرائهم ... إلى سنة (٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م)^(١) . ومن ناحية ثانية فإن أندريه ميكيل Andre Miquel يعلى من شأن هذا الأدب لأنه يجمع معارف العصر^(٢) . وجدير بالذكر أن ما نقله من أدب جغرافي نظرى ضمن أغلبه كتابه المترجم « بالتنبه والإشراف » وهو آخر ما صنفه قبيل وفاته في عام (٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) . وليس يخفى أنه لتقويم منقولاته ينبغي تتبعها في مظانها المختلفة كلما كان ذلك ممكنا . وهذا ما حرصت على القيام به بالرغم من صعوبة التقصي والتحقيق .

إن من يتفحص كتابيه اللذين اتبها إلينا كما سبقت الإشارة ، يسترعى انتباهه تنوع وثراء أدبه هذا المستمد من المصادر اليونانية خاصة . من تلك المؤلفات اليونانية نذكر كتاب طيماوس Timaeus لأفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ ق.م) في علم الكونيات^(٣) ، ومؤلفات أرسطاطاليس (أرسطو) الذى عاش في الفترة بين عامي (٣٨٤-٣٢٣ ق.م) ، ومنها

(١) م. ج ١ ص. ١٧-١ .

وللتعرف إلى ما اطلع عليه من ترجمات كتب اليونانيين والروم والهند والفرس والكلدانين ، راجع كتاب « التنبه والإشراف » ، ص ١٠٨ ، ومن ص ١١٥-١١٨ . وإسهامات الرومان في هذا المجال محدودة مقارنة بما قدمه اليونان نذكر من الكتاب الرومان اسطرابون وسينيكا وبليبي .

(٢) اندريه ميكيل ، جغرافية الإسلام البشرية حتى منتصف القرن الحادى عشر ، ج ١ ، القسم الثانى ، ترجمة ابراهيم خورى ، دمشق ١٩٨٣ ، ص ٥ .

(٣) ظهرت قصة القارة المفقودة « أطلانتس » Atlantis في هذا الكتاب . وقد هدته تأملاته إلى البحث في هذه القصة الخرافية ، وفي كتاب طيماوس نشر فكرة فيثاغورث القائلة بكروية الأرض وأنها تتحرك في مدارها من الغرب إلى الشرق

« الأرصاد الجوية Meteorologica » و « الآثار العلوية » وكتاب « السماء والعالم ومبادئ الطبيعة »^(١) ، وقد اعتقد أرسطو أن الكون كروي الشكل لأن الكرة ذات شكل مثالي وأن حركة السماء في اتجاه اليمين لأن اليمين أكثر الاتجاهات احترامه أما دليل كروية الأرض فهو أن ظلها على القمر يتخذ الشكل المستدير . هذا بالإضافة إلى كتابي بطليموس الجغرافى أو القلودى Claudius Ptolemy (٩٠-١٦٨ م) : المجسطى Magisti ، والجغرافيا Geographike .

ومن الثابت أن اهتمامه بأعمال أرسطو وبطليموس كان كبيرا . وهذا ليس بمستغرب إذا ما علمنا مدى التقدير الكبير الذى كنهه العلماء العرب لكل منهما منذ مطلع القرن الثالث للهجرة (التاسع الميلادى) . لكنه يينا اعتمده على أرسطو فى الإحاطة بالجانب الطبيعى من هذا الأدب الجغرافى نجده يستند إلى بطليموس فى دراسته للجانب الرياضى منه .

ويدخل فى باب هذا الأدب أيضا آثار البيضة فى صحة الإنسان وصفاته ، وقد كتب فيها أبقرات (أوبقرات) Hippocrates (٤٦٠-٣٣٧ ق.م) وجالينوس Galênos (١٣٠-٢٠٠ م) . وقد تُرجمت كتب هذين الطبيين وأطلع عليها المسعودى .

و « المجسطى » الذى اطلع عليه المسعودى موسوعة من ثمانية أجزاء : يشكل الأول منها المقدمة وفيها يسجل المؤلف مجموعة توجيهات فى كيفية عمل الخارطة ومعلومات أخرى تفيد فى إنشاء الخارطات . ويضم الجزء الثانى مجموعة لوحات تشكىل فى جملتها خارطة العالم المعروف آنذاك ، رسمت على شبكة من خطوط الطول ودوائر العرض . وإذا ما استعرضنا الأجزاء الستة الباقية نجدها تضم ٨٠٠٠ موضع محددة مواقعها فلكيا . أما كتاب « جغرافيا »

(١) راجع جورج سارتون ، تاريخ العلم ، ترجمة لميف من العلماء ، دار المعارف ، القاهرة ، الجزء الثالث ، ص.ص. ٢٤٦-٣١٧ .

وحول كتب أفلاطون وأرسطو راجع :

Dempier, W. Science in the Ancient World, Cambridge, 1929

أرسطو إلى الإنجليزية فى Loeb Classical Libiary, London, 1950 ، راجع أيضا ج. سارتون ،

ح ٣ ، ص ٢٤٩ .

ففيه صفة الأرض ومدنها وجبالها وما فيها من البحار والجزائر والأنهار والعيون ، إلى جانب غير ذلك من الظاهرات . من هذه المؤلفات وغيرها من أعمال مارينوس (ق. الأول م) ، واثمستيروس في الفلك (ق الخامس قبل الميلاد) . تعرف على النظريات الخاصة بهيئة الأفلاك وصفات الكرة الأرضية والمعمور منها واللامعمور وامتداد المعمور وحدوده والبحر المحيط وبقية الأبحر وماهية الأقاليم السبعة التي ينقسم إليها المعمور ، ثم قرأ كما سبق أن أشرنا^(١) . لأبقراط الذي يرجع إليه الفضل في وضع أسس الطب العلمي كما قرأ ، لجالينوس في الطب فازداد اقتناعاً بآثار الظواهر الطبيعية في حياة البشر .

وفيما يلي عرض لبعض ما أفاده من هذه المصادر اليونانية في الموضوعات التالية :

الفلك :

يذكر صاحب « التنبيه والإشراف » أن الناس من سلف ومن خلف تنازعوا في الفلك . فقال أفلاطون إنه من الطبائع الأربع التي هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة . لكن أرسطو ذهب هو وأكثر الفلاسفة ممن تقدم عصره وتأخر عنه فضلاً عن غيره من حكماء الهند والفرس والكلدانيين إلى أنه طبيعة خامسة خارجة عن الطبائع الأربعة السابقة « فليس فيه حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوسة » . ويضيف أن أرسطو يصف الفلك بأنه جسم مدور . كرى أجوف يدور على محورين^(٢) ... « وهو يدور دورانا طبيعيا دائما وبدورانه ودوران الكواكب التي فيه تنفعل الكيفيات وتنسبط الأركان الأربعة وهي النار والماء والهواء والأرض ، فيتصل ركنان منها وهما النار والهواء بالعلو وركنان منها وهما الماء والأرض بالسفل ثم تتحرك هذه الكيفيات بتحرك الجواهر العلوية والأجرام السماوية على حسب مداراتها ومسيرها وحركاتها وتأثيراتها فيتحرك الركنان الأعلىان بتحرك الكيفيات والركنان الأسفلان بتحرك الركنين الأعلىين » . ويعتقد أرسطو أنه بفضل هذه الحركة تهب

(١) Holt-Jenesen, A. Geography its History & Concepts, New Jersey, 1982, pp. 9-11. راجع أيضاً :

James, P.E. & Martin, G.J. All Possible Worlds, N.Y., 1981, pp 13-39.

(٢) ت. ص ٢٣—٢٤ .

الرياح ... فتنشأ السحاب وينزل القطر . ويعلق المسعودى على ذلك بقوله :
« وهكذا ترتبط المدلولات بعلمها وتشهد للصانع بصنعه وبدائع
حكيمته » . « فسبحان الذى أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد
موتها » . لكنه لا يحاول مناقشة أقوال أرسطو فى الأفلاك وإنما يرجع الأمر كله
لله سبحانه وتعالى . فهو العليم بهيئة هذه الأفلاك وتراكيبها والنجوم وتأثيراتها ،
ثم يردف قوله « ما يمين العالم وما شماله وما خلفه وما أمامه وتحت وفوقه — الله
هو الصانع المدبر . إلا أنها خشية الله . إنما يخشى الله من عباده العلماء » .
صدق الله العظيم^(١) .

حول مركز الأرض من الفلك :

ردد المسعودى فى هذا الخصوص ما قال به أرسطو وبطلميوس وكل
حكماء العالم القديم . فالأرض عندهم هى مركز الفلك ونقطة ثابتة تدور
حولها الأفلاك^(٢) . ويعبر عن ذلك بأسلوبه فيقول : « الأرض فى وسط الجميع
كالنقطة فى وسط الدائرة والفلك متجاف عنها من حيث ما أحاط بها .. وهو
يدور عليها من المشرق إلى المغرب على أوسع موضع فيه على نقطتين وهميتين
متقابلتين فى جنبى كرتة أحدهما القطب الشمالى .. والثانية القطب
الجنوبى »^(٣) . وقد ظل هذا الرأى قائما حتى العصر الحديث حين ثبت أن
الأرض كوكب من كواكب المجموعة الشمسية وأنها ما هى إلا هباءة فى
ملكوت الله تتحرك بقدرته إلى يوم معلوم . وفى هذا المقام لا يتخرج الكاتب
من الإشارة إلى قول أرسطو فى « الآثار العلوية » إن الأرض إلى زوال بعد أن
تمر بمرحلتى الشباب والهرم .

حول شكل الأرض :

هى كرة تشبه فى ذلك الأجرام السماوية التى شاء الله أن يكون التدوير من
صفاتها^(٤) . وقد استدلل أرسطو على تدويرها من استدارة ظلها على القمر فى

(١) المصدر السابق .

(٢) ت. ص ٢٤—٢٥ .

(٣) Smith, D.E. History of Mathematics, Boston, 1923, Vol. 1, p. 30.

(٤) Dreyer, J.E. Planetary Systems, Cambridge, 1956, p. 61.

وقت الخسوف . وينقل عن صاحب المجسطى قوله بأن استدارة الأرض كلها وجبالها وبحارها ٢٤ ألف ميل باعتبار أن الدرجة الفلكية $\frac{2}{3}$ ٦٦ ميل . أما قطرها فسبعة آلاف ميل وستائة وسبعة وستين ميلا . لكن لم يتنبه إلى أن الميل الروماني أقصر من الميل العربي الذي يقدره المستشرق الإيطالي نالينو Nalino بنحو ١٩٧٣ مترا^(١) . من ناحية ثانية فإنه اعترض على تقدير أرسطو لمحيط الأرض لأنه في رأيه مبالغ فيه . فقد قدره بنحو ٤٦ ألف ميل .

المسكون وغير المسكون (المعمور واللامعمور) :

يقسم المسعودي نقلا عن أرسطو الأرض إلى قسمين : مسكون (معمور) وغير مسكون (لا معمور) . وينقسم المسكون بدوره إلى أربعة أرباع الأول منها حار وهو ما كان من جهة الجنوب لأن الشمس تقترب منه فيسخن هواؤه ، والربع الثاني بارد وهو ما كان من جهة الشمال ويبرد هواؤه لبعده عن الشمس عنه . والربعان الآخران هما المشرق والمغرب وهما معتدلان ، وإن كان فضل المشرق أظهر واعتداله أشهر . ويردد المسعودي مقولة بطليموس من أن غير المسكون ينقسم هو الآخر إلى قسمين : الأول يفرط فيه البرد لبعده عن الشمس عنه والثاني يفرط فيه الحر لقرب الشمس منه . وفي القسمين « لا يتركب حيوان ولا ينبت نبات »^(٢)

والمعمور عند بطليموس هو نطاق من اليابسة يبلغ أقصى امتداد له من الشرق إلى الغرب بينما يبلغ أقل امتداده من الشمال إلى الجنوب . وفي موضع آخر يحدد المعمور فيقول بأن طول عمران الأرض يعادل نصف دائرتها أي من حدود الجزائر الخالدات (ربما جزر ماديرا) في بحر أوقيانوس الغربي (المحيط الأطلنطي) إلى أقصى عمران الصين . ثم ينقل عن بطليموس عن مارينوس وجهة نظره في امتداد المعمور من الشمال إلى الجنوب فيقول : « إن أقصى ما وجد عنده من العمارة في جهة الشمال الجزيرة المعروفة بثولي (أو ثوليه)

(١) نالينو (كارلو) محاضرات في علم الفلك : تاريخه عند العرب في العصور الوسطى ، بغداد (بدون تاريخ)

(٢) ت. ص ٣٧—٣٩

Thule في أقصى بحر المغرب من الجهة الشمالية وأن عرضها من معدل النهار في الشمال ثلاث وستون جزءا .. وأن نهاية العمارة من جهة الجنوب .. تبعد من معدل النهار « ستة عشر جزءا وخمس وثلاثين دقيقة وربع وسدس »^(١) . ولا يفوته أن يشير إلى الرأي القائل بأن العمارة تمتد أبعد من ذلك جهة الجنوب . وفي هذا يقول : « إن قوما ذهبوا إلى أن الموضع الذي لا يمكن أن يكون فيه عمارة عرضه في الجنوب واحد وعشرون جزءا وخمس وثلاثون دقيقة » ، وهنا يظهر عدم تمحيص المسعودي للحقائق فهو ينقل دون أن يتحقق من سلامة القول^(٢) ، ولو أنه فعل لغير رأيه . فالمهاجرون العرب والمتزنجون منهم كانوا يعيشون في أيامه على طول الساحل الشرقي لإفريقية . ومصدرنا في ذلك كتابه « مروج الذهب » ذاته . فهو القائل أثناء رحلة له في بحر الزنج « ويركب النواخذه وأرباب المراكب من العمانيين والسيرافيين البحر من سجار (قصبة بلا عمان) ، وسيراف ، فإذا توسطوا البحر دخلوا في تلك الأمواج العاتية التي ترفعهم وتخفضهم حتى ينتهون إلى جزيرة قبلو (جزيرة زنجبار) في بحر الزنج ، وربما يتابعون إبحارهم إلى بلاد سفالة والواق واق من أقاصي أرض الزنج » . فما أبعد الواقع عن النظرية^(٣) ، وربما أتى المسعودي بمجديد لو أنه حاول أن يتأكد من قول بطليموس (نقلا عن حكماء اليونان) باحتمال وجود سودان وراء خط الاستواء تحت مدار الجدى مثل السودان الذي تحت مدار السرطان . ومهما يكن من أمر فإن اليونانيين والروم ذهبوا في قسمة المعمور من الأرض إلى ثلاثه أجزاء هي : أورفا (أوربا) ولويية (إفريقية) وآسية بينما ذهب الفرس والنبط والسريريانيون في قسيمته إلى : مشارق ومغارب وشمال وجنوب ، وأعطوا لكل جهة إسما خاصا^(٤) .

(١) ت. ص ٤٣ . « تول » أو « ثولية » اسم أطلقه الرحالة بيثياس (ت ٢٨٥ ق.م) على جزيرة تبعد عن الجزر البريطانية ستة أيام إلى الشمال . عندها « يمتزج الهواء بالماء وبالأرض » ، وقد ظل اسم تول على الخرائط نحو ١٥٠ عام قبل أن نعرف أنها هي ساحل الرويخ ، راجع Raisz, E. General Cartography, N Y., 1960, p. 9

(٢) ت. ص ٤٤

(٣) م. ج ١ ، ص ١٠٨ .

(٤) ت. ص ٤٣ .

المسطحات المائية :

يقول المسعودى نقلا عن حكماء اليونان بأحادية المحيط وأنه يغطي الجزء الأكبر من الكرة الأرضية . هذا البحر المحيط مستدير على مواضع الأرض ، والشواهد على ذلك كثيرة لعل أهمها « أنك إذا لججت فيه غابت عنك الأرض والجبال شيئا فشيئا » ، وهذا البحر المحيط يعد « عند أكثر الناس معظم البحار وعنصرها وأنها منه تتشعب ويسمى باليونانية (أوقيانوس) ، أما نهاياته فهي مجهولة عند بطليموس وغيره »^(١)

وقد وقف الكاتب على ما يظن أنه استغلق على غيره علمه وغرب عليه فهمه ذلك أنه عنى بأمر البحار برهة من حياته وصرف إليها همته فقرأ كل ما كتبه حكماء الأمم . ولفت انتباهه من هذه الكتابات قول صاحب المنطق (أرسطو) « أن البحار تنتقل على مرور السنين وطويل الدهر حتى تصير في مواضع مختلفة وأن جملة البحار متحركة إلا أن تلك الحركة إذا اضيفت إلى جملة مياهها وسعة سطوحها وبعد قعودها صارت كأنها ساكنة .. وليست مواضع الأرض الرطبة ولا مواضع اليابسة أبداً يابسة ، لكنها تتغير وتستحيل لصب الأنهار إليها وانقطاعها عنها ، ولهذا العلة يستحيل موضع البحر وموضع البر »^(٢) . وربما كانت هذه الفكرة إرهاباً لنظرية تغير توزيع اليابس والماء خلال الأزمنة الجيولوجية وإن كان ذلك لا يعود إلى صب الأنهار فيها وانقطاعها عنها كما يزعم أرسطو .

ويتشعب عن موضوع الغلاف المائي كما عرفه الأقدمون موضوعات فرعية مثل صفات مياه البحر والمد والجزر والجزر والأنهار التي تنتهى مياهها العذبة إلى البحر المحيط والأبحر التي تخرج منه . ومن صفات مياه البحار كما يقول صاحب المنطق أنه أكتف من الماء العذب ودلالته على ذلك كما يذكر المسعودى « أن الماء المالح كدر غليظ والماء العذب صاف رقيق »^(٣) . أما سبب المد والجزر فقد تنازع فيه الأوائل من فلاسفة الأمم وحكمائها أهو من أفعال الشمس أم من أفعال القمر^(٤) . ولأية علة صار في بعض البحار أظهر وأقوى .

(١) ت ص ٦٦ .

(٢) م . ح ١ ، ص ٩٧-٩٨ .

(٣) شرحه ص ١٢٨ .

(٤) يقول سارتون « كان أرسطو من أوائل اليونانيين الذين بينوا العلاقة بين القمر والمد والجزر » ،

عن تاريخ العلم ، ح ٣ ، ص ٢٤٢

وقد أدلى العلماء العرب بدلوهم في هذا الموضوع كما سنشير فيما بعد . وفي موضع آخر من كتاب « التنبيه والإشراف » ينقل الكاتب قول بطليموس في كتابه « جغرافيا » بأن عدد البحار المحيطة بالأرض خمسة أبحر (بما فيها البحر المحيط) تنتشر فيها جزر عامرة وغير عامرة ويصب فيها ٢٩٠ نهرا تجري في الأقاليم السبعة « دوام الأوقات »^(١).

وأول البحار التي خصها المسعودي بالذكر هو البحر الحبشي وذلك « لأنه أعظم ما في المعمور من البحار وأجلها قدرا وأعظمها خطراً لاكتناف الممالك الجلييلة إياه » . وفي رأى بطليموس كما يقول الكاتب أنه ليس في المعمور بحر أعظم منه ، إذ يأخذ من بلاد الحبشان التي في المغرب إلى أقصى بلاد الهند والصين التي في المشرق^(٢).

ولا يفوت المسعودي أن يشير إلى أن بطليموس أدخل هذا البحر في حد المعمور « وذكر أنه يتهى إلى أرض في الجنوب مجهولة ، لكنه يرفض الرأى القائل إن « طول هذا البحر هو ثلاثة أرباح محيط الأرض » ، إذ ليس الوحد كذلك » على حد قوله . وثمة ما يشير إلى أنه كان على بينة من اختلاف رأى الفلاسفة عن واقع الحال بالنسبة لهذا البحر . ففي ملاحظة ذكية يقول « وجدت نواخدة بحر الصين والهند وبحر الزنج واليمن .. ووجدت السيرافيين والعمانيين يخبرون عن البحر الحبشي في أغلب الأمور على خلاف ما ذكرته الفلاسفة أو غيرهم »^(٣).

ويبدو أن حديثه عن الأنهار التي تصب في هذا البحر جاء من واقع المشاهدة ولقاء أهل النظر وهذا ربما يفسر أنكاره لقول الجاحظ بأن مخرج مهران السند والنيل من موضع واحد^(٤). أما هذه الأنهار فهي عديدة نذكر منها وفق الترتيب الذي جاء في النص دجلة والفرات ومهران السند ونهر

(١) م. ج ١ ص ٨٨ ، راجع أيضا ت. ص ٦٢ .

(٢) يأخذ بهذا الرأى من العلماء العرب أبو يوسف بن اسحاق الكندى في رسالة له في « البحار والمد والجزر » ، وتلميذه أحمد بن الطيب السرحسى في رسالة له في « منافع البحار والجبال والأنهار » .

(٣) م. ج ١ ، ص ١٢٨ .

(٤) المصدر السابق

جنجس (الجانج) وأنهار في بلاد الأهواز وفارس وكرمان والصين .. وغير ذلك مما أحاط به البحر من الممالك . ونكتفي بهذا القدر عن البحار إذ لا جدوى من سرد أوصاف الأربعة الأخرى^(١)

الأقاليم السبعة :

إن تقسيم العالم إلى أقاليم أمر شغل بال حكماء اليونان والفرس والهند . وقد نقل المسعودى عن علماء اليونان مفهوم الأقاليم السبعة التى ينقسم إليها المعمور من الأرض . وفى هذا يقول «تنازع» من عنى من حكماء الأمم وفلاسفتهم بعلم الهندسة ومساحة الأرض فى هذه الأقاليم السبعة فى الشمال والجنوب أم فى الشمال دون الجنوب . فذهب الأكثرون إلى أن ذلك فى الشمال دون الجنوب لكثرة العمارة فى الشمال وقتلتها فى الجنوب (جنوبى خط الأستواء) . ثم يضيف أن هناك من علماء اليونان من يقول بأن هناك فى الجنوب سبعة أقاليم كما هى فى الشمال^(٢)

ويمثل الأقليم نظريا نطاقا من الأرض يمتد بموزاة خط الأستواء . ويبدأ الأقليم الأول فى شغلب الأراء مع خط الأستواء وينتهى الأقليم السابع عند خط ٦٠° شمالا الذى يمثل نهاية المعمور . لكنها جميعا تبدأ من المشرق لتنتهى فى المغرب يفصل بينها خطوط العرض . ويكشف المسعودى فى خبر آخر عن صور مختلفة للأقاليم فضلها هرمس وأتباعه^(٣) . فقد كانت تأخذ شكل نطاقات دائرية يقع فى وسطها الأقليم الرابع — اقليم بابل والعراق . أما بقية الأقاليم فكانت كما يلى : الأول الهند والثانى الحجاز والحبشة والثالث مصر وافريقية والخامس الروم والسادس يأجوج ومأجوج والسابع الصين وما جاورها . وبهذا يمزج المسعودى بين المفاهيم الاقليمية اليونانية مما يكشف عن سعة اطلاعه . أما أساس هذا التقسيم الاقليمى فمبنى فى رأى حكماء اليونان على اختلاف طول النهار كلما بعدنا عن خط الأستواء . فبينما هو ١٣ ساعة فى الأقليم الأول يطول ليبلغ ١٦ ساعة ونصف الساعة فى الاقليم السابع عند دائرة عرض ٦٠° تقريبا .

(١) يتحدث المسعودى فى كتابه « التنبيه والإشراف » عن هذه الأنهر ومصباتها فى الأبحر المختلفة ، ص ٦١-٧٦ .

(٢) ت. ص ٤٥ .

(٣) / شرحه .

البيئة وصحة الانسان وصفاته

قرأ المسعودى لأبقراط وجالينوس في الطب وخرج بأقوال في أثر البيئة على صحة الإنسان مما يدخل في باب الجغرافية الطبية . فينقل عن أبقراط قوله : « يداوى كل عليل بعقاقير أرضه فإن الطبيعة تتطلع إلى هوائها وتنزع إلى غذائها » . ويذكر حكمة جالينوس القائلة « يتروح العليل بتسيم أرضه كما تنبت الحبة ببلى الأرض » . ويضيف إلى ذلك مقولة افلاطون « غذاء الطبيعة من أنفع أدويتها » وهذا أمر أخذ يجد قبولا واسعا هذه الأيام . ومن الثابت أن اليونان ربطوا بين صفات البيئة وصفات البشر الخلقية والجسدية لكن المسلمين هم الذين طوروا هذا المفهوم لزيادة معرفتهم بالعالم كما سنبين لاحقا^(٢) .

المصادر الهندية والفارسية :

أخذ المسعودى عن هذه المصادر معلومات أغلبها تاريخية تتصل بتواريخ الأديان والملوك وبعض النواحي الفلكية ، لذا فيمكن القول إن ما أفاد منها جغرافيا لا يكاد يذكر هذا فضلا عن أن الخاب الفلكي في هذه المصادر مأخوذ في جانب كبير منه من كتابات حكماء اليونان . وعن الكتب الهندية التي ربما رجع المسعودى إلى ترجمات عربية لها كتب الملك المعروفة « بالسندھنتات » ، ويشير إليها المسعودى أو ربما إلى أشهرها باسم « السندھند »^(٢) . وكما قرأ للهند قرأ للفرس ، وفي هذا يقول « رأيت بمدينة اصطخر من أرض فارس في سنة ٣٠٣ هـ عند بعض أهل البيوتات المشرفة في الفرس كتابا عظيما يشتمل على علوم كثيرة من علومهم وأخبار ملوكهم

(١) عبد الفتاح محمد وهيب ، جغرافية الإنسان ، الاسكندرية ١٩٩٢ ، ص ١٠ كتب ارسطو في التوزيع الجغرافي للكائنات وعن العلاقة بين هذه الكائنات وبيئاتها الطبيعية وكيف يتأثر كل حيوان بغيره من الحيوانات أو النباتات التي بالقرب منه وهو في هذا الميدان لم يكن أقل من أبقراط في الطب ، راجع سارطون ، تاريخ العلم ، ج ٣ ، ص ٢٧٤ .
ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن العرب ترجموا في أيام الدولة العباسية كتب أرسطو في علم الحيوان . واستعان بها الخاحط في كتابه الحيوان وقد أطلع عليه المسعودى — راجع طه الحاحرى ، تفريغ بصوص أرسططاليس في كتاب الحيوان للخاحط ، مجلة كلية الآداب المجلد ٧٣ ، ١٩٥٢-١٩٥٣ ، ص.ص ١٥-٣٥ .

(٢) س.م ضياء الدين علوى ، الجغرافيه العربيه ، تعريب وتحقيق د. عبد الله يوسف الغنيم ، وطه جاد ، الكويت ، ١٤١٠ هـ ، ص ٢٤ ، راجع كذلك التنبيه والإشراف ، ص ٤ : ٢

وأبنيتهم وسياساتهم ، لم أحدها في شيء من كتب الفرس « كخداى ناماه » و « آئين ناماه » و « كهناماه »^(١) .

ومما نقله الكاتب عن الفرس تقسيمهم لأقاليم المعمور من الأرض وفي هذا يقول « قسموا هذه الأقاليم بين الكواكب السبعة (الخمسة والينرين) على قدر تواليها وتتابعها في الفلك . فالإقليم الأول لزحل وهو « كيوان » بالفارسية له من البروج الجدى والدلو . والإقليم الثاني للمشتري وهو بالفارسية « أورمزد » له من البروج القوس والحوت . الإقليم الثالث للمريخ وهو بالفارسية « بهرام » له من البروج الحمل والعقرب . الإقليم الرابع للشمس وهو بالفارسية « خرشاد » ومن اسمائها « أقتاب » لها من البروج الأسد . الإقليم الخامس للزهرة وهى بالفارسية « أناهيد » لها من البروج الثور والميزان . الإقليم السادس لعطارد وهو بالفارسية « تير » له من البروج الجوزاء والسنبلة . الإقليم السابع للقمر وهو بالفارسية « ماه » له من البروج السرطان . واسم الإقليم أو المملكة بالفارسية « كيشور » وجمعها كيشورات^(٢) .

المصادر العربية :

سبقت الإشارة إلى أن المسعودى كان أحد الموسوعيين العرب الذين استوعبوا علوم العصر وفنونه سواء العربية أو المنقولة إلى اللسان العربى . ومراجعة كتاباته نجد أنه يشير إلى عديد من أصحاب المصادر العربية التى استقى منها معلومات فى الأدب الجغرافى لا تربطها فكرة احدة وإنما هى توجد متفرقة مبعثرة . ولسنا بسبيل ذكر كل المصادر وأصحابها وهى كثيرة العدد منها ما لم يصل إلينا .

وسنكتفى بذكر أهمها مشيرين إلى ما أفاد منها فى مجالى الفلك والمعارف الجغرافية دونما فصل بينهما ذلك لأن العلم فى ذلك الزمان وحتى وقت قريب كان علما موسوعيا تختلط فيه المعارف اختلاطا واسعا .

رجع إلى مؤلفات هشام الكلبي (ت ٢٠٦ هـ / ٨٢٠ م) التى تعد أقدم ما دونه المسلمون فى هذا الأدب . لكن من أسف لم يصلنا منها إلا نتف

(١) ت. ص ١٠٧-١٠٨

(٢) م ح ١ ، ص ٤٧ .

صغيرة . وقد قيل أن هذا الكاتب ألف عشرة مؤلفات تحوى موضوعات ذات طابع جغرافى منها على سبيل المثال كتاب « البلدان الكبير » وكتاب « الأنهار » ، وكتاب « الأقاليم »^(١) . كذلك كان المسعودى ملماً بالكتابات الجغرافية والفلكية لأبى يوسف يعقوب ابن اسحق الكندى (ت ٢١٠ هـ / ٨٧٣ م) فيلسوف العرب الأشهر وتلك التى تركها تلميذه ومريده أحمد بن الطيب السرخسى (ت ٢٨٦ هـ / ٨٨٩ م) . فقد رجع إلى مؤلفاتهما واقتبس منهما واعتبر آراءهما سليمة . بل إنه فضلها على تلك الأقوال المبالغ فيها من قبل بعض الكتاب العرب كتقديرهم مثلاً لحجم البحر الحبشى . ويبدو أن كاتبنا أطلع على مؤلفين من مؤلفات الكندى واستوعب ما فيهما ونعنى بهما : « رسم المعمور من الأرض » ، و « رسالة فى البحار والمد والجزر » . كذلك قرأ عملياً من أعمال السرخسى (الذى أثنى عليه) ، وهما « المسالك والممالك » و « رسالة فى البحار والمياه والجبال » . أما عن المادة التى استخلصها من كتاباتهما فإننا لسنا على يقين من فحواها . لكن يمكن القول إنها تتصل أساساً بمعلومات جغرافية عن البحار خاصة بالمد والجزر وأحجام البحار المختلفة وبكميات مياهها هل فى زيادة أم نقصان^(٢) .

وقد اطلع المسعودى فى الأرجح على ترجمة لكتاب المجسطى لبطلميوس قام بها أبو الحسن ثابت بن قره (ق ٣ هـ) أحد كبار الرياضيين والفلكيين العرب . لكنه عاب على فلكية زمانه ومنحى عصره اقتصارهم على معرفة الأحكام وتركهم النظر فى علم هيئة الأفلاك ، فليس العلم بتأثيرات الفلك (الأحكام) بمستغن عن علم الهيئات « إذ التأثيرات واقعة بالحركات وتبدل الأحوال ، وإذا وقع الجهل بالحركات وقع الجهل بالتأثيرات »^(٣) .

ومن مصادر هذا الكاتب التى تعد الأساس الأول للأدب الجغرافى الرياضى عند العرب كتاب « صورة الأرض » للخوارزمى (محمد بن موسى) أحد معاصرى الكندى . ومن المعتقد أن ثمة صلة بين هذا الكاتب وخريطة العالم المأمونية التى تعاون هو وغيره من الباحثين على تحقيق رغبة الخليفة فى عمل

(١) كراتشكوفسكى ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ١٢٦ .

(٢) م. ج ١ ، ص ١١٣-١١٥ .

(٣) ت. ص ٢٨ .

مصور دقيق للعالم فجاء أفضل من مصور بطلميوس كما أسلفنا في أحد الهواشي . إذ جاء فيه رسم للعبة السماوية وما بها من نجوم كما صور اليابس والماء والمعمور والمهجور والأقاليم وما بها من مدن وما يسكنها من خلائق .

ومن المصادر الفلكية التي رجع إليها زيح أبي معشر البلخي (٢٧٢ هـ / ٨٨٦ م) وعرف باسم « كتاب المدخل الكبير » وهو يعالج نفس مجال كتاب المجسطي لبطلميوس . وقد كان أبو معشر على علم بالنظريات الفلكية لدى الهنود والفرس . وتظهر في كتاباته معرفة بالرياح الموسمية التي تهب على الخليج العربي وبحار الهند . وكتب عن أسباب المد والجزر والتيارات البحرية^(١) .

من الكتب ذات الصفة الجغرافية التي أثنى عليها المسعودي ووصفها بالنفيسة كتاب « المسالك والممالك » لابن خرداذبة (ت ٢٩١ هـ / ٩٠٣ م) الذي وصفه بأنه كان « إماما في التأليف متبرعا في ملاحاة التصنيف »^(٢) كذلك امتدح كتاب الجيهاني الذي لم يصلنا^(٣) .

إلى جانب هذه المؤلفات الهامة قرأ المسعودي بشغف كتباً أخرى في الفتوح والأخبار وتواريخ المدن والأنواء والطب والفلاحة والخراج . كما استقى معلومات جغرافية من الأعراب في البوادي ، ومن كتابات الرحالة كما سبقت الإشارة . وهو إلى ذلك رجع إلى بعض المصادر بحثا عن ضالته من أبيات الشعر تشرح وتؤيد أقواله أو تشير إلى ظواهر جغرافية . وقد يكون من المفيد أن نشير إلى بعض المصادر فيما يلي من حديث .

يذكر المسعودي أنه قرأ كتاب علي بن محمد المدائني (ت ٢٢٥ هـ / ٨٣٩ م) المسمى كتاب « أخبار القالة » ، وآخر لأحمد بن يحيى البلاذري (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) المعروف باسم « فتوح البلدان » ، واعتبره أفضل كتب فتوح الإسلام^(٤) . واطلع على مصنفات آخرين من كتاب الفتوح والمؤرخين والأخباريين نذكر منها كتاب « فتوح مصر » لعبد الرحمن بن عبد

(١) \ راجع : Reinaud, M., Géographie d'Abu'l feda, Introduction General, Paris, Vol., p. 95.

(٢) م. ج ١ ، ص ١٤ .

(٣) عاب المقدسي على الجيهاني أنه نسي كتابه على كتاب ابن خرداذبة المذكور .

(٤) م. ج ١ ، ص ١٢ .

الحكم (ت ٢٥٧ هـ) ، و « فتوح الأمصار » لمحمد بن عمر الوافدي (ت ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م)^(١) ، ورجع إلى كتاب « أخبار بغداد » لمحمد بن أبي طاهر طيفور (ت ٢٨٠ هـ / ٨٩٣ م) . وقد أفاد أيضا من مؤلف يحيى بن بكر في الآثار المصرية ، كما يبدو أنه حصل على معلومات من كتب لم يسمها لعبد الرحمن الجرمي (ت ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م) في تاريخ وجغرافية الرومان ومن والاهم من قبائل البلغار والسلاف والخزر وغيرهم . وأغلب الظن أنه استقى معلومات عن منازل القبائل العربية ومواطنها من الهيثم بن عدي الطائي (ت ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م) الذي يردد ذكره في بعض ما كتب . أما ما أطلع عليه من كتب الأنواء والطب والخراج فقد توفر على تأليفها علماء أجلاء نذكر منهم أبو حيفة الدينوري (ت ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م) صاحب « الأنواء » ، وكتاب « النبات »^(٢) وأبو بكر الرازي (ت ٣١٥ هـ / ٩٢٧ م) صاحب كتاب « المنصوري » في الطب ، وأبو الفرج قدامة بن جعفر (ت بين ٣٠٠-٣٢٦ هـ / ٩١٢-٩٣٧ م) صاحب « كتاب الخراج »^(٣) .

يبقى بعد ذلك ما أخذه عن الاخباريين وكتاب الجغرافية الاقليمية والرواة وما تمتل به من الشعر وهو شيء كثير لا يمكن الإحاطة به في هذه العجالة . والأمر كذلك فسنكتفى بإشارات سريعة .

ليس من شك في أن المنسعودي كان ممنا بالمعتقدات التاريخية التي اترجع إلى ما قبل الإسلام بقدر ما كان عارفا بالتاريخ الصحيح للفترة اللاحقة^(٤) ، فهو يشير إلى كتاب « هذه التواريخ بمختلف ألقاب التشریف » مثل « المعنيون بأخبار العالم وملوكه » مما يعنى أنه يتقبل كل ما جاء فيها من أساطير وأقوال . فقد ردد الزعم أن السفر حول الأرض يستغرق ٥٠٠ عام . هذه المعالجة غير النقدية أساءت أحيانا إلى فكره الجغرافي .

وهو مدين فوق ذلك لكتاب الجغرافية الوصفية (المسالك والممالك) فيما

(١) ج ١ ص ١٤

(٢) شرحه ص ١٥

(٣) شرحه ١

(٤) رجع إلى الرواية عيد الله بن شريه الجرمي في أخبار حمير وكهلان ، ت . ص ٨٨ :

يتصل بوصف الأقطار التي لم يزرها كبلاد الامبراطورية البيزنطية وبلاد المغرب والأندلس ، كذلك هو مدين لكتب التاريخ المختلفة وكتب الفتوح أيضا فيما يتصل بالجغرافية التاريخية للمدن وأسوارها وقلاعها ومساجدها . وعن الاخباريين والرواة نقل جملة من إجابات أهل الاختصاص في مجالس الخلفاء العباسيين . من أهل الاختصاص هؤلاء نذكر حنين بن اسحاق (ت ٢٥١ هـ / ٨٦٥ م) الذي أجاب عن أسئلة في المسائل الطبيعية في مجلس الخليفة الواثق تكشف عن مدى العلم بهذه الأمور في النصف الأول من القرن الثالث للهجرة ، ولهذا الحديث عودة .

وإذا كان الشعر العربي خاصة الجاهلي منه مصدرا هاما من مصادر هذا الأدب فإن ما ضمنه المسعودي كتابيه من أبيات لا يفيد كثيرا في هذا المجال ، وإن كان لا يخلو بعضها من أسماء أماكن وتلميحات إلى بعض الظواهر الجغرافية . نذكر منها على سبيل المثال قول بشار بن برد في الرافدين :

الرافدان توافى ماء بحرهما إلى الأبله شربا غير محظور^(١)

وقول أبو أسماء سعد بن بكر بن هوازن متفاخرا :

نحن كنا الملوك من أهل نجد وحماة الدمار عند الدمار
ومنعنا الحجاز في كل حي فمنعنا الفجار يوم الفجار^(٢)

وقول هدبة العذري وهو يومئذ بالمدينة مسجوناً :

ألا ليت الرياح مسخرات بحاجتنا تباكر أو تؤوب
فتخبرنا الشمال إذا أتتنا وتخبر أهلنا عنا الجنوب^(٣)

مفاهيم عربية :

هذه هي جملة من المصادر العربية التي أطلع عليها المسعودي واستعان بها في تكوين أدبه الجغرافي النظري . ولكي نتعرف على ما هية بعض ما استوحاه أو نقله من هذه المصادر قد يفيد أن نسجل بعض ما ذكر من مفاهيم جغرافية عربية دون أن نحدد مصدراً بعينه .

(١) ات. ص ٥٣ .

(٢) شرحه ص ١٩٥ .

(٣) شرحه ص ٣٣ .

حكمة تكوير الأرض :

يقول الكاتب « إن الحكمة في كون الأرض كروية الشكل أنها لو كانت مسطوحة كلها لا غور فيها ولا نشز يحرقها لم يكن النبات وكانت مياه البحار سائحة على وجهها فلم يكن الزرع ولم يكن لها غدران تفضي مياه السيول إليها . ولا كانت لها عيون تجري تنبع بالماء أبدا . لأن مياه العيون لو كانت منها تخرج دائما لفنيت ولصار الماء أبدا غالبا على وجه الأرض . فكان يهلك الحيوان ولا يكون زرع ولا نبات فجعل عز وجل منها أنجادا ومنها أغوارا ومنها أنشازا ومنها مستوية^(١) . وأما أنتازها فمنها الجبال الشاخنة ومنافعها ظاهرة في قوة تحدر السيول منها . فتتهدى إلى الأرضين البعيدة بقوة جريها وفي تقبل الثلوج فتحفظها إلى أن تنقطع مياه الأمطار وتذيبها الشمس فيقوم ما يتحلب منها مقام الأمطار » . وحكمة التكوير أيضا « أن تكون الأكام والجبال في الأرض حواشر للمياه لتحرى من تحتها ومن شعوبها وأوديتها فيكون منها العيون الغزيرة ليعتصم بها الحيوان ويتخذها مأوى ومسكنا ولتكون مقاطع ومعازل وحواجز بين الأرضين من غلبة مياه الأمطار عليها وما لا يحصيه إلا خالقها »^(٢) .

وقد صدق المسعودي حين قال أنه لو كانت الأرض مسطوحة لا غور فيها ولا نشز لغطت وجهها المياه فلم يكن زرع ولم تكن أنهار . لكن من الواضح أنه خلط بين التكوير والتضرس ولم يقدر تأثير الكروية على المناخ في العروض المختلفة كما لم يستوعب كيف يتكور الضوء على الظلمة ولا الظلمة على الضوء بل ربما لم يدرك هو وكثير من أهل زمانه معنى قوله تعالى « خلق السماوات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل » (الزمر ٣٩) .

الرياح :

تأثر الكاتب بأرسطو فيما يتصل بمفهوم عناصر المناخ ومنها الرياح لكنه أضاف إلى معلوماته تلك ما اطلع عليه في كتب الأنواء الإسلامية وما علمه من أجوبة حول المسائل الطبيعية التي شعلت المسلمين أيام الدولة العباسية . « وقد

(١) ت. ص ٤١ .

(٢) شرحه ص ٤٢ .

تنازع الناس في الرياح الأربع ومياها وطباعها فقال فريق منهم الرياح أربع شمال وجنوب وصبا ودبور ، والصبا من المشرق والدبور من المغرب والشمال من تحت جدى الفرقدين والجنوب من تحت جدى سهيل^(١) . والشمال باردة يابسة والجنوب حارة رطبة والدبور باردة رطبة والصبا يابسة . وكل أن هناك رياحا تهب من الجهات الأصلية فهناك رياح ثمانية تهب من جهات فرعية . وفي هذا يقول الكاتب « والرياح محدودة بحسب الآفاق تكون الآفاق اثني عشرة أفقا والرياح كذلك . غير الرياح الفرعية هنالك رياح محلية كالمرسية التي تهب في النوبة وصعيد مصر » وهي « باردة تقطع الغيوم وتصفى الهواء وتقوى حرارة الأبدان »^(٢) . ويقع الوباء إذا طالت فترة هبوبها . وهناك البحرية التي تهب على أسفل الأرض (في مصر) في الصيف وإذا طال هبوبها يطيب الهواء ويرد الماء ليلا ونهارا .

قياس محيط الأرض :

« يقدر المعنيون بمساحة الأرض وشكلها تدويرها بنحو ٢٤ ألف ميل وذلك أنهم نظروا إلى مدينتين في خط واحد أحدهما أقل عرضا من الأخرى وهما الكوفة ومدينة السلام فأخذوا عرضيهما فنقصوا الأقل من الأكثر ثم قسموا ما بقي على عدد الأميال التي بينهما فكان نصيب الدرجة مما يحاذيهما من أجزاء الأرض المستديرة ستة وستين ميلا وثلاثي ميل على ما ذكر بطليموس^(٣) . فإذا ضربوا ذلك في جميع درج الفلك التي هي ثلاثمائة وستون درجة كان ذلك أربعة وعشرين ألف ميل (نحو ٤٧٣٥٠ كيلا) وكان قطرها سعة آلاف ميل وستمائة وسبعة وستين ميلا . لكن طول الدرجة الفلكية هذا والذي تم بالقياس لم يجد قبولا من الفلكيين فمنهم من قدرها بنحو سبعة وثمانين ميلا ومنهم من رآها أقل من ذلك بكثير ولا تزيد على ستة وخمسين ميلا وثلاثي ميل . إلا أن المسعودي تمسك بما كشف عنه القياس^(٤)

(١) ت. ص ٣٣ .

(٢) شرحه .

(٣) م. ح ٢ ، ص ٢١٥-٢١٦ .

(٤) شرحه ، راجع م. ح ٢ ، ص ٢١٩ .

الأقليم الرابع :

سبق أن أشرنا إلى الأقاليم السبعة التي انقسم المعمور إليها في رأى اليونان وغيرهم من الأمم القديمة ، لكن تفاوتت الحدود الفاصلة بين الأقاليم من فترة لأخرى ولم يحل الأمر دون ظهور آراء عربية في هذا الموضوع فقد زعم المسعودى أن جميع المدن الكبرى تقوم في اقليم واحد وعلى خط عرض واحد^(١). لكنه من ناحية أخرى وهو البغدادى النشأة يخص الاقليم الرابع باهتمامه وبيان فضله وبرر ذلك بقوله « إذ كان به مولدنا وفيه منشؤنا وكنا أولى الناس بتقريظه .. وإن كان ذلك أشهر من أن يحتاج فيه إلى أطناب » .

ويتابع الكاتب وصفه فيقول « هذا الاقليم وسط الأقاليم السبعة وأعد لها وأفضلها وبلد العراق وسطه فهو شرف الأرض وصفوتها ، أعدلها غذاء واصفاه هواء متوسط بين افراط الحر والبرد وموضعه الموضع الذى ينقسم فيه الزمان أربعة أقسام فلا يخرج ساكنوه من شتاء إلى صيف حتى يمر بهم فصل الربيع ولا من صيف إلى شتاء حتى يمر بهم فصل الخريف ... والعراق أشرف المواضع التي اختارتها ملوك السريانيين الذين تسميهم العرب النبط ثم ملوك الفرس^(٢). ثم يحدد الكاتب حدود العراق كما يراها فيقول هي تبدأ حيث يلتقى دجلة والفرات في الجنوب وتضم من السواد البقعة التي يحدها خط وهمى شمالى بين حلوان وتكريت على دجلة وهيت على الفرات . هذه البقعة هي قلب دولة النبط ولب « ايران شهر » التي تفانت عليها ملوك الأمم فكان اختيارهم بفضل آرائهم المصيف بالجبال ليسلموا من سمائم العراق وكثرة ذبابه وهوامه ، والمشتى بالعراق ليسلموا من زمهرير الجبل (جبال زاجروس) وكثرة ثلوجه وأمطاره ووحلوله واقداره . وكان الشاعر أبو دلف بن عيسى العجلي يفعل ذلك كما يخبرنا المسعودى فقال مفتخرا به :

إنى امرؤ كسروى الفعال أصيف الجبال وأشتو العراق^(٣)

وبعد أن يصف غنى السواد بالحبوب والفاكهة وارتفاع خراجها فيما قبل الإسلام يردف قوله « وكثير من هذه النواحي اليوم على ما كانت عليه في ذلك

(١) ت. ص ٥٦ .

(٢) شرحه ؛ ص ٤٨-٥١ .

(٣) ت. ص ٥٠-٥١ .

الوقت لم يغز أرضوها ولم يبد ساكنوها وإنما يحتاج أن يكون مع ملاكها ومديرها تقى الله أولاً ثم دراية ونحدة وعدل وعفة وسياسة حتى تستقيم الأمور وينتظم التدبير ويأت من الأموال ما يسير به أركان الملك وتعمر به البلاد ويشحن به الثغور ويقمع به العدو»^(١).

ويعود بنا الكاتب مرة أخرى إلى أيام الفرس ليصف لنا أحوال السواد في تلك الأيام وما حدث له في أيام كسرى أبرويز (ق. ٥ م). «كان السواد يعد في أيام الفرس اثنتا عشرة كورة (استان) وطساسيجه (نواحيه) ستون طسوجا». ثم تغير ذلك على مر الأيام لانخراق دجلة وخروجها عن عمودها في كورة جوخي بين واسط والبصرة فانتشرت بطائح يبلغ طولها مسيرة أيام وعرفت في ديوان السلطان (في أيام المسعودي) بأجام البريد وأخراب جوخي بعد أن كانت أعمر السواد^(٢). وبعد خراب كورة جوخي وإضافة كورة حلوان إلى كورة الجبل صارت كور السواد عشر تحوى ثمان وأربعين ناحية. ثم آل ذلك إلى نقص وخراب «لبثوق انبثقت وجلاء وانتقال وجذب وجور وحيف من الأتراك الذين غلبوا على هذا الصقع إلى هذا الوقت وهو سنة ٣٤٥ هـ»^(٣).

هذا بعض ما ذكره المسعودي عن وطنه العراق في كلمة وفاء قدمها إليه بعد أن فارقه في رحلات طويلة «فبعدت الديار وتراخى المزار». لكنه كان دائم الحنين إليه فإن «من علاقة الرشد أن تكون النفس إلى مولدها مشتاقة وإلى مسقط رأسها تواق»^(٤).

البحار :

كانت معرفة العرب بالبحار إبان القرن الرابع الهجري أوسع من معرفة اليونان. فقد ركبوها في سفرات طويلة وعرفوا سواحلها وخلجانها وجزرها وموانئها وما تتأثر به من ظواهر كالرياح والمد والجزر. لكن من أسف أن

(١) شرحه ص ٥٢.

(٢) شرحه.

(٣) ت. ص ٥٤.

(٤) م. ص ١١٥.

معرفتهم تلك لم يسجل منها إلا ما اتفق مع قول السلف أما ما كشفت عنه الخبرة العملية فلم يلق الاهتمام الذى يستحقه . وفيما يتصل بالمد والجزر فى البحار يسجل المسعودى كل الآراء اجتهادا ، لكنه كدأبه لم يفضل رأيا على الآخر . فهو ينقل عن النواخذة فى البحر من السيرافيين والعمانيين « أن المد والجزر لا يكون فى معظم هذا البحر (الخليج العربى) إلا مرتين فى السنة ، وفى كل مرة ينحسر الماء فى موضع ويمد فى موضع آخر مقابل » ، أما سبب ذلك فغير مذكور^(١) . وفى رأى أبى يوسف يعقوب بن اسحاق الكندى وأحمد بن الطيب السرخسى أن البحر يتحرك مداً وجذراً بتحريك الريح ، فإذا كانت الشمس فى الجهة الشمالية تحرك الهواء إلى الجهة الجنوبية لعلل ذكرها فيسيل ماء البحر بحركة الهواء إلى الجهة الجنوبية ، فكذلك تكون البحار فى جهة الجنوب فى الصيف طامية عالية (مد) لهبوب الشمال ، وتقل المياه فى جهة البحار الشمالية (جزر) . ويحدث عكس ذلك إذا كانت الشمس فى الجهة الجنوبية . وهو بعد ذلك لا يتردد فى ذكر تفسير أسطورى لهذه الظاهرة البحرية فيقول « إن الملك الموكل بالبحار وضع عقبة فى أقصى بحر الصين فيفور منه البحر فيكون المد ثم يرفع عقبة من البحر فيرجع الماء إلى مركزه ويطلب قعره فيكون الجزر »^(٢) . وفى ختام حديثه عن هذه الظاهرة يستطرد متشككا ومتعللاً « وإن لم يصح ما ذكرنا فقد وصفنا انفا ما قال الناس فى ذلك .. ليعلم من قرأ هذا الكتاب (مروج الذهب) أنا قد اجتهدنا فيما أوردناه »^(١) .

وبفضل رحلاته واطلاعه نجده ينفى القول بوجود صلة بين خليج القسطنطينية (البسفور) وبحر الخزر (قزوين) وفى ذلك يقول مستغرباً « رأيت أكثر من تعرض لوصف البحار ممن تقدم وتأخر يذكرون فى كتبهم أن

(١) شرحه ، ص ١٢٤ .

(٢) شرحه ، راجع عن المد رسالة الكندى الفلسفية فى العلة الفاعلة للمد ، محمد عبد الهادى أبو ريده ، رسالة الكندى الفلسفية ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٥٣ ، يتحدث المسعودى فى موضع آخر من وجهة نظر عالم عربى عن ملوحة البحر ودورة الماء فيقول : « ومن أهل البحث من قال إن جميع الماء الذى يفيض إلى البحر من جميع ظهور الأرض وبطونها إذا صار إلى تلك الحفرة العظيمة فهو مضاض من مضاض . والأرض تقذف إليه ما فيها من ملوحة . والذى فى الماء من أحزاء النار التى تخرج إليه من بطون الأرض .. يرفعان لطائف الماء لارتفاعهما وتبخرهما . فإذا رفاعا اللطائف صار منها ما يشبه المطر . وكان ذلك دأبهما وعادتهما ، ثم يعود بعد ذلك الماء مالحا .. ح ١ ، ص ١٢٦) .

خليج القسطنطينية الآخذ من بحر بنطس (البحر الأسود) يتصل ببحر الخزر
ولست أدري كيف ذلك ومن أين قالوه أمن طريق الحدس أم من طريق
الاستدلال والقياس ؟ أو توهموا أن الروس ومن جاورهم على هذا البحر (بحر
بنطس) هم الخزر ^(١)

وفي موضع آخر ينقل عن الكندي والسرخسي بأن في طرف العمارة من
الشمال بحيرة عظيمة بعضها تحت قطب الشمال وأن بقربها مدينة ليس بعدها
عمارة يقال لها ثولية (Thule) ، ويضيف أنه رأى لبنى المنجم في بعض رسائلهم
ذكر هذه البحيرة ^(٢) . وقد حدد بعض المحدثين موقع مدينة « ثولية » أو
« ثولي » بأنها على ساحل النرويج . فإذا كان الأمر كذلك فهذه البحيرة هي في
أغلب الظن البحر البلطي حديثا ^(٣) . وهذا يكشف عن مدى معرفة العرب
ودرايتهم في هذا العصر بالأصقاع الشمالية الباردة . ثم إن المسعودي يقول
بوحدة البحار أي أنها متصلة ، وهذا يعنى أن افريقية تحيط بها المياه وليست كما
رسمها بطليموس متصلة بالبر الآسيوى . هذا تطور يحسب للعرب ولا شك .

بعض المسائل الطبيعية :

يكشف المسعودي عن مدى اهتمام خلفاء بنى العباس بالعلم حين يشير إلى
مجلس الخليفة الواثق (ت ٢٣٢ هـ / ٨٤٦ م) مع حنين بن اسحاق
(ت ٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م) أجاب فيه هذا العالم المترجم للكتب اليونانية عن
أسئلة حول بعض مسائل الطبيعة التي كانت تشغل بال العرب . من بين هذه
الأسئلة نذكر : ما الأشياء المغيرة للهواء ؟ وكم هي أوقات السنة ؟ وكيف تغير
الكواكب الهواء ؟ عن السؤال الأول أجاب حنين خمس هي : أوقات السنة
وطلوع الكواكب وغروبها والرياح والبلدان والبحار . وعن الثاني أجاب :

^(١) م. ج ١ ، ص ١٢٥ ، بينما يرفض المسعودي أن تكون ثمة صلة بين بحر الخزر وبحر بنطس لا
يعترض على رأى القائل بوجود صلة مائية بين بحيرة ثولية (البحر البلطي) وبحر بنطس من
خلال خليج القسطنطينية . وقد ظل هذا الرأى تتناقله الأجيال حتى أيام الدولة العثمانية ، وثولية
كانت عند رحالة العصور الوسطى الأوربيين حريرة لا تبعد عن المياه المتحمدة الشمالية إلا نحو
يوم إبحارا في المياه غير المتحمدة . راجع :

Newton, S.P., Travel and Travellers of the Middle Ages, London 1949, pp. 6-15;

^(٢) شرحه ، ص ١٢٦ .

^(٣) كراتشكوفسكى ، ج ١ ، ص ١٠٦—١٠٧ .

هى أربع : الربيع والصيف والخريف والشتاء ومزاج الربيع معتدل فى الحرارة والرطوبة ومزاج الصيف حار يابس ومزاج الخريف بارد يابس ومزاج الشتاء بارد رطب . أما كيف تغير الكواكب الهواء فيجب حنين عن ذلك بقوله « إن الشمس متى قربت منها أو قربت هى من الشمس كان الهواء أزيد سخونة وخاصة كلما كانت أعظم . ومتى بعدت الشمس أو بعدت هى من الشمس كان الهواء أزيد بردا »^(١) . ومن الواضح أن الإجابة على السؤال الثالث جانبها الصواب ذلك أن الاعتقاد السائد فى ذلك الزمان هو أن الشمس هى التى تدور حول الأرض مقتربة ومبتعدة عنها تبعا لفصول السنة^(٢) . .

ونضيف إلى ذلك أن العرب كانوا على علم بأسباب الخسوف والكسوف واختلاف الفصول فى نصف الكرة الأرضية وطول النهار صيفا كلما اتجهنا شمالا وطول الليل شتاء كلما اتجهنا فى نفس الاتجاه ، بل لقد ذهبوا إلى القول بأنه فى بعض المواضع قد تشهد « مقدار شهر من الصيف نهارا كله لا ليل فيه وشهرا من الشتاء ، لا نهار فيه »^(٣) . كذلك فسروا سبب حفاف مواضع كفسطاط مصر تفسيرا لا يبعد كثيرا عن التفسير الحديث^(٤) .

اختلاف قوى الأرضين وفعلها فى الأبدان :

يرجع كاتبنا الاختلاف إلى ثلاثة أسباب هى : « كمية المياه التى فيها وكمية الأشجار ومقدار ارتفاعها وانخفاضها . ويشرح الكاتب هذه الأسباب بقوله : « فالأرض التى فيها مياه كثيرة ترطب الأبدان والأرض العادمة للمياه تجففها » ، وأما اختلاف قوتها من قبل الأشجار فإن الأرض الكثيرة الأشجار التى فيها تقوم لها مقام السترة تسخن والأرض المكشوفة من الأشجار العادمة لها حالها عكس حال الأرض الكثيرة الأشجار . ولا يخفى أن هذا الشرح يفتقر إلى الدقة . لكن الكاتب أصاب عندما يفسر اختلاف قوى الأرضين من قبل مقدار علوها وانخفاضها فذلك لأن « الأرض العالية المشرفة فسيحة باردة والأرض المنخفضة العميقة حارة ومدة »^(٥) .

(١) م . ح ٤ ، ص ٨٢ .

(٢) ت . ص ٢٠٨ .

(٣) شرحه .

(٤) شرحه ، ص ٢٠٩ .

(٥) ت . ص ٤٢ .

العوامل التي تحدد مواضع الاستقرار :

يشرح المسعودي من واقع الخبرة ومن الاطلاع كيف أن العوامل الطبيعية مثل المرتفعات والمنخفضات وطبيعة الأرض القرية وطبيعة التربة ومجاورة الجبال والبحار تحدد الأماكن السكنى والاستقرار. فالارتفاع يجعل البلدان أبرد والانخفاض يجعلها أسخن كما قدمنا . « وأما اختلافها من جهة مجاورة الجبال لها فمتى كان الجبل من البلد من ناحية الجنوب جعله أبرد لأنه يكون سبب امتناع الريح الجنوبية ، وإنما تهب فيه الشمالية فقط . ومتى كان الجبل من البلد من ناحية الشمال جعله أسخن لامتناع هبوب الرياح الشمالية فيه ، وأما اختلافها لمجاورة البحار فمتى كان البحر من البلد في ناحية الشمال كان ذلك البلد أبرد وأيسر .. » (١) . ومن الواضح أن هذا التفسير الجغرافي سليم إلى حد كبير ويشكف عن مدى فهم العرب لتأثيرات عناصر البيئة الطبيعية في نشاط الإنسان .

تأثير المجال الحيوى في حياة الناس وصفاتهم :

أهتم هذا الموسوعى بالنظر في أحوال البدو من العرب ونقل عنهم آراء ومفاهيم حول البداوة من ذلك قول ذوى الآراء منهم « إن الأبنية والتحويط حصّر عن التصرف في الأرض ومقطعة عن الجولان وتقييد للهمم ، وحبس لما في الغرائز من المسابقة إلى الشرف ، ولا خير في اللبث على هذه الحالة . وزعموا أيضا أن الأبنية والأطلال تحصر الغذاء وتمنع اتساع الهواء وتسد سרוحه عن المرور وقذاه عن السلوك ، فسكنوا البر الأفيع .. وهذا مع ارتفاع الأقداء وسماحة الأهواء واعتزال البواء .. ونقاء القرائح .. مع صحة الأمزجة وقوة الفطنة وصفاء الألوان ، وصيانة الأجسام .. وفي هذا الأمن من العاهات والأسقام .. فأثرت العرب سكنى البوادي والحلول في البيداء .. » (٢) .

تأثير المناخ على الإنسان :

تأثير المناخ على الإنسان موضوع كتب فيه حكماء اليونان من قبل لكن كان للعرب ملاحظات خاصة بهم جمعوها بفضل كثرة التجوال واتساع

(١) ت. ص ٤٢-٤٣ .

(٢) م. ج ٢ ، ص ١١٩-١٢٠ .

معرفتهم بالعالم ، وربما كان ابن خلدون (ت ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م) أشهر من كتب في هذا الموضوع^(١) . ولقد ظل تأثير المناخ في أشكال البشر وصفاتهم من المسائل التي ثار حولها الجدل حتى وقت قريب . نذكر من الرواد المحدثين الذين قالوا بتأثير المناخ على حضارة الإنسان وصفاته راتزل Ratzel (ت ١٩٠٤ م) وهنتجتن Huntington (ت ١٩٤٧ م)^(٢) . وإذا كان هؤلاء الرواد قد خصوا البيض بمميزات ترجع إلى ميل المناخ إلى البرودة مما يدفع إلى العمل فإنه كان للمسعودي بل لحكماء اليونان رأى آخر في تأثير المناخ البارد على سكان الربع الشمالى من المعمور . يقول المسعودي عن هؤلاء السكان « هم الذين بعدت الشمس عن سمتهم من الواغليين في الشمال كالصقالبة والإفرنجية ومن جاورهم من الأمم ، فإن سلطان الشمس ضعف عندهم لبعدهم عنها ، فغلب على نواحيهم البرد والرطوبة . فقل مزاج الحرارة فيهم فعظمت أجسامهم وجفت طبائعهم وتوعرت أخلاقهم وتبلدت أفهامهم .. وابتضت ألوانهم .. ومن كان منهم أوغل في الشمال فالغالب عليه الغباوة والجفاء والبهائية وتزايد ذلك فيهم في الأبعد إلى الشمال »^(٣) . ويرتبط ما سبق بتأثير البيئة وتكيف الكائنات . ويفسر المسعودي ذلك بقوله « غلب طبع كل أرض على ساكنها كما نشاهد الحارار السود والأغوار ، وحشها إلى السود ووحش الرمال البيض على ذلك اللون ، فإن كانت الرمال أحمر فوحشها عفر وهو لون التراب ، وكذلك وحش الجبال من الأراوى وغيرها يكون على ألوان تلك الجبال إن حمرا وإن بيضا وإن سودا »^(٤) .

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٨٦-٩ .

(٢) عبد الفتاح وهيبه ، جغرافية الإنسان ، مرجع سابق ، ص ٢٠-١٥ .

(٣) ت. ص ٣٨ .

(٤) ت. ص ٤٣ .

القسم الثاني
الأدب الجغرافي الواقعي
(أدب الرحلات)

إن من يحاول متابعة المسعودى فى رحلاته الواسعة التى استغرقت من عمره أربعة وثلاثين عاما وانتظمت مملكة الإسلام وما جاورها من بلاد ، يواجه صعوبات تحول دون وضوح الرؤية . من تلك الصعوبات أنه لم يتقيد بخط سير فى كل رحلة ولم يعن بتسجيل مراحلها ولا بتوقيعاتها ، كما لم يخبرنا بأماكن نزوله وإقامته إلا ما ندر . ويزيد من صعوبة تتبع سياحته كذلك استطراداته الكثيرة بل خروجه عن الموضوع فى أكثر من موضع . يضاف إلى ذلك أنه لم يحدد بوضوح أى البلاد التى زارها وتلك التى اعتمد فى وصفها على الرواية أو النقل .

ومن هنا يرى بعض من عرض لهذه الرحلات أنه لم يزر سرنديب (سيلان) ولا الصين ، ولا جزيرة رامنسى (سومطرة) ، وأنه لم يعبر البحر المتوسط ليطوف بلاد المغرب العربى والأندلس . هذا فضلا عن أنه لم يقيم بسياحة فى بلاد الدولة البيزنطية .

ولقد بُذل جهد كبير فى تحديد مراحل رحلاته وتحقيق ما جاء فى وصف ما شاهده أو كتب عنه معتمدا على الرواة . وفيما يلى استعراض لرحلاته أو أدبه الجغرافى الواقعى كما جاء فى « التمهيد » .

مرحلة الرحلات المبكرة

(٣٠٣ - ٣٠٥ هـ / ٩١٥ - ٩١٧ م)

البحار التي ركبها - صفاتها وما بها من ثروات :

لما كان البحر هو المجال الأوسع في تنقلاته المبكرة فسنبداً بالحديث عن البحار التي ركبها ونثني بالبر الذي قطعه . لم يركب المسعودي إلا بحرين من البحار السبعة التي جاء ذكرها في كتاباته ألا وهما : البحر الحبشي وبحر لاروى . ونتردد في قبول دعواه بأنه أبحر في بحر الصين وحال أيضاً في بلاد الصين لعدم وجود دليل قوى على ذلك فيما وصل إلينا من كتاباته^(١) . وهو يرى أن بحر الزنج (الذي أبحر فيه مرتين) جزء من مياه بحر لاروى (شكل ١) الذي يمثل بدوره قسماً من البحر الحبشي^(٢) . ويعرف البحر الحبشي « بأنه البحر الذي يضم بحار الصين والهند والسند والزنج والبصرة والأبلة وفارس وكرمان وعمان والبحرين والشحر واليمن وأيلة والقلزم من بلاد مصر والحبشة » . ويشتهر بكثرة خلجانه وجزره وآطامه (المخاريط البركانية) التي ترى من البحر كما يعرف بموانيه وشطوطه المرجانية وبمغاصات اللؤلؤ فيه .

أما البحار التي تطل عليها شواطئ جنوب شرق آسيا فهي : « بحار الصين والهند وفارس واليمن متصلة مياهها غير منفصلة .. إلا أن هيجانها وركودها مختلف » . ويعلل ذلك عن علم بقوله لاختلاف مهاب رياحها وآثار ثورانها وغير ذلك^(٣) . « فبحر فارس الذي ركبته تكثر أمواجه ويصعب ركوبه ، عند لين بحر الهند واستقامة ركوبه وقلة أمواجه ، وتقل أمواجه ويسهل ركوبه عند ارتجاج بحر الهند واضطراب أمواجه وظلمته وصعوبة مركبه » . ويبدو أنه أطلع على مثل هذه المعلومات في كتاب أبي معشر المنجم المترجم « بالمدخل الكبير إلى علوم النجوم »^(٤) ، ويضيف أن أول ما تبتدىء

(١) جاءت اشارته إلى ركوبه بحر الصين عند قوله : « وقد ركت عدة من البحار كبحر الصين والروم والخزر والقلزم واليمن - مروح الذهب » - ج ١ ص ١٠٨ . ومع ذلك فبرجح أنه لم يزر الصين ذاتها .

(٢) م . ج ١ ص ١٤٧ .

(٣) شرحه .

(٤) شرحه .

صعوبة الملاحة في بحر فارس في أول الخريف . ولا يزال تكثر أمواجه في كل يوم إلى أن تبلغ أشدها في أواخر هذا الفصل فتمتنع الملاحة . ثم يلين ابتداء من فصل الربيع فيركبه المسافرون . لكنه يستطرد فيستير إلى أن هذا البحر صالح طول العام للملاحة في المسافة بين عُمان وسيراف ومن سيراف إلى البصرة ولا يتجاوز في ركوبه غير هذين الموضعين . ويرجع ذلك إلى هدوء الريح وضعف الأمواج في أغلب أيام السنة .

أما إذا أراد مركب أن يبحر من عمان إلى الهند عبر هذا البحر — بحر فارس — فلا بد أن يكون مركباً معزراً وحمولته يسيرة تدفعه ريح شتوية نحو سواحل الهند « هكذا استطاع ملاحو عرب الخليج أن ينفذوا إلى المحيط الهندي المتلاطم الأمواج معتمدين بعد الله على الريح المواتية . ويضيف الرحالة « ولكل من يركب هذه البحار من الناس رياح يعرفونها .. وقد عُلِمَ ذلك بالعادة وطول التجارب » (١)

ويمتاز بحر فارس بمغاصات اللؤلؤ قرب مياه قطر وعمان وغير ذلك من هذا البحر . ويذكر أن الغاصة لا يكادون يتناولون شيئاً من اللحم إلا السمك والتمر وغيرهما من الأقوات .. ويشقون آذانهم لخروج النفس منهما بدلاً من المنخرين لأن المنخرين يجعل عليهما شيء من الدبل (٢) يضمها كالمشقاص . وما يجعل في آذانهم من القطن فيه شيء من الدهن . فيعصر من ذلك الدهن اليسير فيضىء لهم بذلك في البحر ضياء . ويضيف أنه خوفاً من بلع دواب البحر لهؤلاء الغاصة يطلون أقدامهم وسوقهم بالسواد الذي تنفر منه هذه الدواب » (٣) .

وأول بحر فارس خشبات منصوبة عند البصرة وهي بمثابة علامات للمراكب إلى عمان وقصبتها (تسمى سنجار) ومنها إلى المسقط وهي قرية

(١) م. ج ١ ص ١٤٧ .

(٢) المصدر السابق ص ١٤٨ . والدبل قطعة من ظهر السلحفاء البحرية .

(٣) شرحه ص ١٤٩ . كان مبحراً في بحر الزنج في طريقه إلى بحر فارس في عام ٣٠٤ هـ / ٩١٧ م .

راجع كتاب « سلسلة التواريخ » الذي نشره لانغل وضم رحلة التاجر سليمان وإضافة أبي زيد السيرافي — مرجع سابق ص ١٠—٣٥ .

يستقى أرباب المراكب الماء من آبار عذبة . ومن مسقط تبخر المراكب إلى رأس الجمجمة (رأس الحد) وهي آخر بحر فارس من جهة الجنوب . وبحر فارس ينتهى إلى بلاد الأبله وعبدان من أرض البصرة . وهذا الخليج مثلث الشكل ينتهى أحد زواياه إلى بلاد الأبله وعليه مما يلي المشرق ساحل فارس من بلاد ماهر بان ، ومدينة حسان واليه تضاف الثياب الحسانية ثم بلاد سيراف وبلاد ابن عمارة ثم ساحل كرمان ثم يلي ساحل كرمان ويتصل به على ساحل هذا البحر بلاد مكران وهذه كلها أرض نخل . ويقابل ما ذكره من ساحل فارس مكران بلاد البحرين وجزائر قطر وبلاد عمان وأرض مهرة إلى رأس الجمجمة . ويمتد الساحل غرباً إلى أرض الشحر والأحقاف ، وفي هذا البحر جزائر كثيرة مثل جزيرة خارك^(١) وجزيرة أوال وفيها خلائق كثيرة من العرب ، وجزيرة لافت وفيها خلق من الناس وقرى وعمارة متصلة . وعلى الجانب الغربى من البحر تقوم مدينة الزاره والقطيف من ساحل هَجَر .

ولاحظ أن مواضع في مياه القسم الجنوبي من هذا البحر (الذى تطل عليه بلاد عمان وسيراف) لابد للمراكب من الجواز عليها والدخول في وسطها فتخطىء وتصيب^(٢) . كما شاهد على جانبي البحر في هذه المواضع جبال سود ذاهبة في الهواء ولا نبات عليها ولا حيوان .

وينتقل بنا الرحالة من بحر فارس والقلزم إلى بحر لاروى وهو بحر عظيم لا يُدرى عمقه ولا يحصر طوله وعرضه بل أنه ليس بين البحور التى ينقسم إليها البحر الحبشى أكبر منه ولا أشد وفي عرضه يقع بحر الزنج^(٣) .

وكما استهوى المسعودى اللؤلؤ فقد استهواه العنبر وغيره من السلع لترفيه ، لكنه يسه إلى أنه في هذا البحر قليل وأن أكثره يقع في مياه بحر الزنج وساحل

(١) يقول ياقوت عن هذه الجزيرة هى حل عال في وسط البحر وهى من أعمال فارس — معجم البلدان ج ١ ص ٣٣٧ .

(٢) م. ج ١ ص ١١٠—١١١ .

(٣) لم يشر المسعودى إلى مدينة عدن على بحر الزنج كمرسى تجارى كبير (في القرن ٤ هـ / ١٠ م) بين افريقية وبلاد العرب ونقطة ارتكاز تجارية بين الهند والصين . وقد سماها المقدسى « دهليز الصين » — راجع آدام متر « الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى نقله إلى العربية محمد عبد الهادى أبو ريدة — القاهرة ١٩٥٧ .

الشَّحْر من أرض العرب . وأهل الشَّحْر ناس من قضاة وغيرهم من العرب وهم مهرة لهم تُجب يركبونها بالليل .. فإذا أحست هذه النجب بالعنبر قد قذفه البحر بركت عليه فيتناوله الراكب . وهو من أجود العنبر ، ولا يفضلته إلا عنبر جزائر بحر الزنج وساحله^(١) .

ومن الخليجان التي تخرج من بحر الزنج وهو جزء من بحر لاروى غير بحر فارس بحر القلزم . وقد أبحر المسعودى في هذين البحرين في نحو عام (٣٠٤ هـ / ٩١٧ م) ، وقد سبقت الإشارة إلى ما رآه في بحر فارس ، أما بحر القلزم فينتهى إلى مدينة القلزم من أعمال مصر^(٢) . وعليه مدينة أيلة والحجاز وجدة واليمن . وهو بحر ضيق في طرفيه عريض في وسطه . وتقع قبالة الحجاز وبلاد أيلة على الجانب الغربى من بلاد العلاق وبلاد العيذاب وأرض البجة ثم أرض الحبشة^(٣) ، ويصف هذا البحر فيقول :

« وليس في البحار وما ذكرنا من الخليجان مما أحتوى عليه البحر الحبشى ، أصعب ولا أكثر حيالا (منافع المياه في الوديان) ولا أسهك رائحة ولا أقحط ولا أقل خيراً في بطنه وظهره من بحر القلزم^(٤) »

وقد لاحظ اثناء إبحاره فيه ، أنه دون سائر البحور لا تسير فيه المراكب إلا نهراً . « فإذا جنَّ الليل أُرْسَتْ في مواضع معروفة .. لكثرة جباله وظلمته ووحشته » . ولكن ربما كان السبب الحقيقى الذى لم يفطن إليه المسعودى هو كثرة الشعاب المرجانية التي تتحطم عليها هذه المراكب إذا لم تتجنبها . ثم هو ليس مما اتصل به من بحر الهند والصين وغيره في شيء ، وهو بالضد من ذلك . لأن بحر الهند والصين في قعره اللؤلؤ وفي جباله الجواهر ومعادن الذهب والفضة وفي منابته الأبنوس والخيزران .. والساج وأشجار الكافور^(٥) والطيب والعنبر « وأشياء أخرى كثيرة ليست بهذا البحر^(٦) » .

(١) م. ج ١ ص ١٥١ .

من الواضح أن المسعودى لم يطلع على كتب معاصره أن الخائف الهمدانى (ت ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م) حاصلة كتاب صفة جزيرة العرب الذى جمع فيه معلومات قيمة تتصل بالقسم الجنوى من بلاد العرب . نشره بالقاهرة محمد بن عبد الله بن بليهد السجلى عام ١٩٥٣ م .

(٢) المصدر السابق ص ١٠٩ .

(٣) شرحه ص ٢٩ .

(٤) شرحه ص ١١٢ .

(٥) المصدر السابق ص ١٠٩ .

(٦) م. ج ٢ ص ٢٨ .

جنوبى الجزيرة العربية :

ويعود فيحدثنا عن جنوبى الجزيرة العربية التى ارتحل فيها ارتحالاً واسعاً وقحولة بلاد عدن والشحر فهى لا تنبت إلا شجيرات البخور . ورأى كيف يلتقط أهل الشحر العنبر على مقربة من البحر مستعينين بنجبهم السريعة^(١) . ومن المحتمل أنه ذهب إلى إقليم كهلان بعد أن زار سد مأرب فى اليمن . وقد لاحظ كثرة انتشار القرودة بين بلاد صنعاء وكهلان . وعلم أنه ليس أحسن ولا أنجس ولا أسرع قبولاً للتعليم من قرودة اليمن^(٢) ، كذلك زار صنعاء وعندها شاهد خرائب قصر غمدان . وعلم بوجود جزيرة تقع إلى الجنوب من عدن تعرف بسقطره تشتهر بنبات الصبر الذى لا يوجد إلا فيها ولا يحمل إلا منها . وقد اكتشف لدهشته أن فيها قوماً من اليونانيين يحفظون أنسابهم وتأوى إليهم بوارج الهند التى تقطع على المسلمين الذين يريدون الصين والهند^(٣) .

الجزر :

وفى بحر لاروى هذا سمع عن الجزر التى تقع قبال ساحل الهند الجنوبي الغربى وأطلق عليها اسم «الديجات» (شكل ١) (جزر المالديف) وهى فى رأيه تفصل بين بحر لاروى وبحر هر كند (المحيط الهندى) . وعلم أنها جزائر كثيرة تبلغ نحو ألفى جزيرة فى بعض الأقوال .. وملكتها امرأة وبذلك جرت عادتهم من قديم الزمان لا يملكهم رجل . والعنبر يوجد فى هذه الجزائر أيضاً يقذفه البحر إذا ما هاج^(٤) .

ويذكر أن غير واحد من نواخذة السيرافيين والعمانيين أخبره أن العنبر ينبت فى قعر هذا البحر ويتكون كتكون أنواع الفطر . ويعود فيصف أهل هذه الجزائر بالكثرة وتوحد كلمتهم وأن غذاءهم من الزانج (ثمر شجر جوز الهند) وأنه ليس يوجد بين سكان الجزر ألطف صنعة من أهل هذه الجزائر فى سائر

(١) المصدر السابق ص ١١٢ .

(٢) م . ج ٢ ص ٢٨ .

(٣) شرحه ص ٢٩ .

يتردد نفس هذا الخبر فى كتاب « سلسلة التواريخ » مرجع سابق ، ص ١٣٣ .

(٤) م . ج ١ ص ١٥١-١٥٣ .

المهن والصنائع والآلات وغير ذلك . وبيوت أموال مملكتها الودع . وهذا يذكرنا بما شاهده المكتشفون الأوروبيون إبان عصر الكشف الجغرافية عندما نزلوا سواحل أمريكا وأستراليا .

ويذكر أن آخر هذه الجزائر جزيرة سرنديب ويلها جزائر أخرى تظهر لمسافات طويلة تعرف بجزائر الرامين أو الرامني^(١) . وهي جزائر معمورة وفيها ملوك وفيها معادن كثيرة ويحمل من كل هذه الجزائر التي سبقت الإشارة إليها خشب البَقَم والخيزران والذهب . ويتابع الرحالة وصفه لبقية الجزر في هذه المياه الجنوبية فيشير إلى جزائر لنجباوس (نيكوبار وما جاورها) في بحر كِلِه (الجزء الشرقي من خليج بنغال وما والاها من خلجان جهة الشرق) ، وفي هذه الجزائر أمم عجيبة الصدر عراة يخرجون في القوارب عند اجتياز المراكب بهم ، معهم العنبر والنارجيل (جوز الهند) فيتعاوضون بالحرير وشيء من الثياب^(٢) . وحدثه أرباب المراكب عن جزائر أخرى ربما تكون جزائر أندمان وفيها أناس سود عجيبو المنظر ملفوفو الشعور^(٣) .

إعصار التيفون في بحر هر كند :

ومن الظواهر المناخية التي وصفها له النواخذة في خليج البنغال إعصار « التيفون » Typhoon وما يحدثه في البحار الجنوبية من ثورة في مياه البحر وتخريب . في البر ، فيقول في ذلك « وذكر لي جماعة من النواخذة أنهم ربما رأوا في هذا البحر سحاباً أبيض قطعاً صغيراً يخرج منه لسان أبيض طويل حتى يتصل بماء البحر فإذا اتصل به علا البحر لذلك ارتفعت منه زوابع عظيمة ، لا تمر زوابع منها بشيء إلا اتلفته ، ويُمَطَّرُون عقيب ذلك مطراً سهكاً فيه أنواع من قذى البحر »^(٤) .

(١) يرجح أن تكون هي جزيرة سومطرة وما حولها من جزائر .

(٢) م . ج ١ ص ١٥٢ .

(٣) شرحه ص ١٥٣ .

(٤) شرحه — التيفون كلمة ذات أصل عرى معناه « الطوفان » .

بحار أخرى بعيدة وجزائر :

ويشير المسعودي إلى بحار أخرى أبعد تقع جهة الشرق من جزر لنجبالوس (نيكوبار) هي : « كِلَه » أو كلاهبار و « كردنج » و « الصنف » وهي بحار تحيط الأرخبيل الإندونيسي وتطيف بسواحل ماليزيا وبرما^(١) ، (شكل ١) . أما بحر الصين فهو آخر البحار الشرقية وأسماء « بحر صنجي » ومن المشكوك فيه أنه ركب هذه البحار كلها والأرجح أن يكون حديثه عن بعضها وخاصة بحر الصين قد استند فيه إلى روايات أرباب المراكب وإلى أقوال صديقه أبي زيد السيرافي وما علمه عن رحلة التاجر سليمان (ق ٣ هـ / ٩٠ م) ، والأخير من رواد الرحلات البحرية في صدر الإسلام . وربما أطلع المسعودي أيضاً على كتاب « عجائب الهند »^(٢) لصاحبه الرام هرمزي (٣٠٠-٣٤٢ هـ / ٢١٩-٩٥٣ م) . وقد تضمن هذا الكتاب معلومات طريفة ومفيدة عن جزيرتي جاوة وسومطرة والصين والطرق البحرية الموصلة إليها وبحر « كِلَه » الذي يحيط في جانب منه بجزيرتي سومطرة وملقا .

وبحر « كِلَه » بحر قليل الماء ولذا فهو أكثر آفات وأشد خبثاً وهو كثير الجبال والجزائر والممرات البحرية (الصراوى) من ناحية ويقابله من الناحية الأخرى بحر هر كند (المحيط الهندي) . ويصف بحر كردنج (في نطق آخر كدرنج) بأنه كثير الجبال والجزائر وفيه الكافور وهو أيضاً قليل الماء كثير المطر لا يكاد يخلو منه . وفيه أجناس من الأمم منهم جنس يقال له « الفنجب شعورهم بقلقلة وصورهم ومناظرهم عجيبة ، يتعرضون في قوارب لهم للمراكب إذا اجتازت بهم ويرمون بأنواع من السهام سُميت بالسم »^(٣) . ومن وصفه يمكن القول إنه يقع إلى الغرب من شبه جزيرة الملايو^(٤) . أما بحر الصنف فيشتمل على خليج سيام والمياه القريبة ويتصل شمالاً ببحر الصين . في هذا البحر « مملكة المهراج » ملك الجزائر ومُلكه لا يضبط كثرة ولا تحصى

(١) م. ج ٢ ص ١٥٢ .

(٢) راجع : الرام هرمزي — كتاب عجائب الهند — مرجع سابق .

(٣) شرحه م. ج ٢ ص ١٥٣ — إشارة إلى نفس الظاهرة التاجر سليمان ، أنظر « سلسلة التواريخ » مرجع سابق ص ١١-١٢ .

(٤) شرحه .

بجنوده . ويحمل من بلاده أنواع الطيب والأفاوية .. ومن جزائره الزانج
بوالرامنى أو الرامين ، وعمائرها متصلة . ثم يذكر أنه فى أطراف جزائره جبال
ففىها أمم كثيرة .. آذنهـم مخرمة ووجوههم .. مُطَرَّقة . وينطبق وصف الوجوه
على الوجوه المغولية الملاوية التى تنتشر فى هذه الجزر . أما السطح فجبلى تعلو
قممه فى السماء وتكثر بينها البراكين التى تقذف بأشد ما يكون من صوت
الرعد والصواعق . ويشير إلى علاقة هذا البحر بالمحيط الهادى فيقول :
« وجزائره تتصل ببحر لا تدرك غايته ولا يعرف منتهاه مما يلى بحر
الصين » (١) .

ويسمى بحر الصين « بحر صنجى » (شكل ١) . ويصفه بأنه بحر خبيث
كثير الموج والخبّ (الشدة العظيمة) . ويحكى أن أهل المراكب والتجار من
السيرافيين والعمانيين يتفقون على أنه إذا ما حدث الخب وأراد البارى جل
وعلا خلاص عباده ، فإن البشارة بالنجاة تظهر على صورة طائر يتوقد نوراً فى
أعلى « الصارى » فىرى المسافرون البحر يهدأ والخب يسكن .

ويلق المسعودى على ذلك بقوله « ما ذكرناه فممكن غير ممتنع ولا
واجب » . وهو قول مسلم يؤمن بقضاء الله وقدره . وفى هذا البحر جبال

(١) م. ج ١ ص ١٥٤ .

ثمة خلاف على مواقع هذه البحار وأسمائها وسنحاول قدر الإمكان تحديد مواقعها . هذه البحار
السبعة التى أشار إليها المسعودى هى كما يوضح (شكل ١) :

- ١- بحر لاروى هو بحر لارى Larvey أو لار Lar . وامتد من دلتا نهر السند إلى جزر
كومورين فى أقصى جنوب شبه الجزيرة الهندية . وكانت الأراضى الواقعة عند مدخل
الخليج العربى التى تمتد حتى ساحل كمباى (كنباية عند المسعودى) تسمى لار .
- ٢- بحر فارس هو البحر الذى تطل عليه السواحل الشرقية لشبه الجزيرة العربية وبلاد فارس
وقد شمل هذا البحر الخليج العربى وبحر مكران .
- ٣- بحر هركد يطلق عليه حالياً المحيط الهندى وتطل سرنديب (سيلون) وجزائر الرامنى
(سومطرة) وجزر نيجابلوس (نيكوبار) وأندمان .
- ٤- بحر كلاهبار (أو كلة) تمتد شبه جزيرة ملقا (الملايو) وجزائر الرامنى (سومطرة) .
- ٥- بحر كدرنج تطل عليه شبه جزيرة الملايو من جهة الشرق وهو كثير الجزر تطل عليه كثير
من الجبال العالية .
- ٦- بحر صنف يمثل اليوم خليج سيام .
- ٧- بحر صنجى أو بحر الصين وهو بحر كثير المخاطر ، خاصة « بوابات الصين » - عن
الجغرافية العربية ، ص ١٤٩-١٥١ ، مرجع سابق .

كثيرة لا بد للمراكب من النفود بينها وتسمى « بوابات الصين » . وليس بعد الصين مما يلي البحر ممالك تعرف ولا توصف إلا بلاد السيلي (اليابان أو كوريا) وجزائرها التي لا يخرج منها إلا النادر من سكانها وذلك « لصحة هوائها ورقة مائها وجودة تربتها وكثرة حيرها »^(١) .

بحر الزنج :

وبحر الزنج الذى ركبه المسعودى وشاهد فيه الأهوال « ذو موج عظيم كالجبال الشواهدق . موج أعمى يرتفع كارتفاع الجبال وينخفض كأخفض ما يكون من الأودية »^(٢) .

ولا ينكسر موجه ولا يظهر من ذلك زبد كتكسر امواج سائر البحار ، ثم هو موج مجنون يتلع المراكب ومن فيها ، ومن الواضح أن هذا الموج من النوع العملاق الذى تسببه عواصف بحرية ويظهر فى المحيطات والبحار المكشوفة كبحر الزنج هذا . ويضيف الرحالة « ويركب النواخذة وأرباب المراكب من العمانيين والسيرافيين البحر من سبجار (قصة بلاد عمان) وسيراف (ميناء على الساحل الإيرانى من الخليج) فإذا توسطوا البحر دخلوا تلك الأمواج العاتية التى ترفعهم وتخفضهم حتى ينتهون إلى جزيرة قبلو (جزيرة زنجبار) فى بحر الزنج وربما يتابعون إبحارهم الى بلاد سفالة والواق واق من أقاصى أرض الزنج »^(٢) . وليس الموج المجنون هو الخطر الوحيد المهدق بأرباب المراكب . فهناك سمك « الأول » (الحوت الأسود) الذى تفرع منه المراكب فى الليل وفى النهار وتضرب له الدبادب والخشب لينفر من ذلك . وطول السمكة نحواً من أربعمئة ذراع .. وربما يهز البحر فيظهر شيئاً من جناحه فيكون كالقلع العظيم ، وهو الشراع ، وربما يظهر رأسه وينفخ الصعداء بالماء فيذهب الماء فى الجو أكثر من ممر السهم^(٣) . وحرصاً منه على أمانة الكلمة ينهى حديثه بقوله :

(١) م. ج ١ ص ١٥٤ .

(٢) شرحه ص ١٠٨ .

(٣) اختلفت الآراء حول هذه الجزيرة فرأى يقول إنها أكبر جزر القمر ورأى ثان يذكر أنها جزيرة زنجبار وثالث يزعم أنها جزيرة مدغشقر . وأرجح أنها جزيرة زنجبار لأنها كما يبحرنا المسعودى قريبة من الساحل ويقطها مسلمون .

(٤) م. ج ١ شرحه .

وفي « بحر الزنج أنواع من السمك بصور شتى ولولا أن النفوس تتكبر ما لم تعرفه وتدفع ما لم تألفه لأخبرنا عن عجائب هذا البحر وما فيه من الحيتان والدواب وغير ذلك من عجائب المياه » (١) .

بين السودان والزنج :

ويفرق المسعودي بين السودان والزنج فالسودان هم طائفة قادمة من جهة الشرق حتى قطعت نيل مصر واتجهت بعد ذلك إلى المغرب . وهم أنواع كثيرة نحو الزغاوة والكانم وغانه وغير ذلك من أنواع السودان . وأما الزنج فطائفة اتجهت مُيمنةً بين المشرق والمغرب وهم النوبة والبجة والزنج . ثم قطعت الزنج دون سائر الأحابش الخليج المنفصل من أعلى النيل الذي يصب إلى البحر الزنج فسكنت ذلك الصقع واتصلت مساكنهم إلى بلاد إسفالة وهي أقاصى بلاد الزنج التي تقصد إليها مراكب العمانيين والسيرافيين (٢) . والقول بوجود خليج يخرج من النيل ويصب في بحر الزنج ، قديم قال به بطليموس ومن لحقه من الجغرافيين الروم والعرب . فليس ثمة فرع من النيل يصب في هذا البحر (بحر الزنج) وإنما هناك نهيرات صغيرة تعبر أرض الصومال إلى هذا البحر (٣) . وملك الزنج يسمى « وقلیمی » وهو يملك ملوك سائر الزنج ، ويركب في ثلاثمائة ألف فارس . ودواب الزنج البقر ، وليس في أرضهم خيل ولا بغال ولا إبل ولا يعرفونها وكذلك لا يعرفون الثلج والبرد .. ومنهم أجناس محددة الأسنان يأكل بعضهم بعضا . والفيلة في بلاد الزنج في نهاية الكثرة وحشية وغير مستأنسة . ولا تستعمل الزنج منها شيئا في الحرب بل تقتلها لأخذ أنيابها ويحمل الأكثر منها إلى بلاد عمان ومن عمان إلى أرض الصين والهند . ويعقب الرحالة على ذلك فيقول « ولولا ذلك لكان العاج بأرض الإسلام كثيراً » (٤) . أما تفسير اسم ملك الزنج « وقلیمی » فمعنى ذلك ابن الرب الكبير (٥) لأنه اختاره لملكهم ، والعدل فيهم فمتى جار عليهم في حكمه وحاد عن الحق قتلوه . والزنج أولو فصاحة .. وليس لهم شريعة يرجعون إليها .. بل رسوم

(١) م. ج ٢ ص ١٠٩ — لم يشر المسعودي أنه زار بلاد الزنج وعليه فقد حصل على معلومات عنها من مطالعته ، ومن الرواة من أصحاب التصر .

(٢) شرحه ص ٦ .

(٣) أشهر هذه النهيرات هو نهر جوبا .

(٤) م. ج ٢ ص ٦—٧ .

(٥) شرحه .

ملوكهم وأنواع من السياسات يسوسون بها رعيتهم . وسمع من الرواة أن أغلب أقواتهم الذرة ونبت يُقلع من الأرض كالكمأة .. ومن غذائهم أيضا العسل واللحم .. وجزائرهم في البحر كثيرة ينمو فيها النارجيل الذي يعم أكله سائر السكان . وجزيرة قتلو (زنجبار) إحدى هذه الجزر وتقع على بعد يوم أو يومين من ساحل الزنج وفيها خلأق من المسلمين ويتوارثها ملوك منهم^(١) . أما غير هؤلاء ممن أمعن في الغرب وأطلق عليهم الحبشة وهم سودان غربى افريقية فمنهم الزغاوة واللوكو والقراقرو ومديده وكثير من الجماعات الأخرى . ولكل واحد من هؤلاء ملك ودار مملكة . ويوضح المسعودى أنه أتى على ذكر جميع أجناس السودان وأنواعهم ومساكنهم ومواضعهم في كتابه « أخبار الزمان » في الفن الأول من جملة الثلاثين فناً التى احتواها .

الهند والسند :

وفى أثناء هذه الرحلات المبكرة زار الهند والسند قادماً من فارس عن طريق مكران وذلك بعد أن قرأ عن هذه البلاد وبعد أن سمع من أهل التبصر والخبرة أخباراً عنها . والمرجح أنه بدأ بزيارة ممالك الهند . وقد حال لبعض الوقت جولانا واسعا فى إقليم كونكان إلى الشمال من بمباى الحالية .

وكان هذا الأقليم كما يقول قسما من مملكة اللار (Vallabharai) وعاصمتها

(١) المصدر السابق ص ١٧ .

بقى نشاط الإغريق والرومان فى إفريقيا مقصورا على الأقاليم الساحلية المطللة على البحر المتوسط وأحيانا الإطار الصحراوى الذى يحيط بها وذلك بما فيه مصر . ولكن العرب كالتواقد أقاموا قبل ظهور الإسلام مراكز عمرانية على سواحل افريقية الشرقية وربما توغلوا قليلا فى الداخل . ولكن ما أن فتح الله مصر على العرب فى أيام خلافة عمر بن الخطاب حتى اتجهوا فاتحين غربا إلى أقصى القارة وعبروا مضيق جبل طارق وفتحوا الأندلس وفى نفس الوقت ضربت شعبة منهم فى أغوار الصحراء تدفعهم حمية الإسلام والرغبة فى نشر أوجه التجارة إلى ما وراء افريقية جنوبى الصحراء وكان لهم ما أرادوا . ونشطوا على ساحل افريقية الشرق رغم المخاطر وواصلوا تقدمهم جنوبا حتى ساحل نالتال فى اتجاه جنوبى افريقية . وفضل هذا النشاط البحرى فى بدء الفتوحات الإسلامية ملك العرب بلاد الصومال ومبسة وزنجبار ومورميقي وجزائر القمر . ومما يدل على مدى اهتمام العرب بافريقية ظهور كتاب المهلبى المتعلق بالسودان فى أواخر القرن الرابع للهجرة (١٠ م) وهو كتاب فريد فى بابه عول عليه ياقوت (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) عندما كتب عن أجناس السودان ومن أسف أنه فقد . راجع : جغرافية العرب فى العصور الوسطى — مرجع سابق ص ٨ .

المانكبر (إلى الجنوب من جولبرجا Gulbarga في حيدرآباد) والتي يغلب على الظن أنه لم يزرها . أما المدن التي زارها فكان أهمها تشول (صيمور) وسندان (أو سندهاره) وسوبارة (أو صوفاره)^(١) (شكل ١) ، وكان يسكن تشول حينما زارها زهاء عشرة آلاف مسلم بينهم الكثير من التجار وهم من أخلاف المسلمين الذين ولدوا وعاشوا في الهند ومن العرب المقيمين الذين قدموا أصلاً من سيراف وعمان والبصرة وبغداد وأماكن أخرى . ومن الجدير بالذكر أنه كان لهذه الجالية الإسلامية رجالها الذين يعينون من قبل الحاكم لإدارة شئونهم والعناية بأمورهم^(٢) .

وانتقل الرحالة بعد ذلك إلى إقليم « كنباية » في عام ٣٠٣ هـ / ٩١٥ م^(٣) وهي من أرض الهند كما يقول وتشتهر حاضرتها بالنعال الكنبائية ، وتقع على خور من أخوار البحر (حلجان البحر) وهو أعرض من النيل أو دجلة أو الفرات عليه من المدن والضياح والعمائر والجنان والنخيل والنارجيل والطواويس والبيغاء وغير ذلك من طيور الهند^(٤) . ويشير إلى ظاهرة المد والجزر في خليج كنباية فيقول « ويجزر الماء عن هذا الخليج حتى يبدو الرمل .. وقعر الخليج قد صار كالصحراء ثم أقبل المد من نهاية الخور (الخليج) كالخيل في الحلبة .

ويقارن هذا المد بالمد الذي يرد بين البصرة والأهواز .. ويسمى هناك « الذئب » بسبب ما يحدثه من ضجيج ودوى وغلجان عظيم يفرع منه أصحاب السفن^(٥) .

(١) يذكر أنه كان بمدينة اصطخر بفارس سنة ٣٠٣ هـ / ٩١٥ م (ت : ص ١٠٨) .

(٢) م . ح ١ ص ١٦٩ .

على الرغم من عزوة الاسكندر للهند إلا أن معرفة العالم بهذا القطر طلت ضئيلة حتى قدم العرب المسلمين الذين افتتحوا السند وحوى إقليم النجاف العربى . فمنذ هذا التاريخ بدأ العالم العربى يقوى صلته بهذا العالم الواسع الجديد عن طريق التجارة ثم الاستيطان . وقد أمدنا كل من التاجر سليمان وأبو ريد السيرافى بأقدم معلومات عربية عن جغرافية الهند وأحوالها الاقتصادية والاجتماعية .

(٣) شرحه ص ١٧٠-٣٠-٩٤٦ Amed, Kafis- Muslim Contribution to Geography, Lahore 946, pp. 30-40.

(٤) شرحه

(٥) م . ح ١ ص ١١٧ .

الهند وأهلها :

وعلى الرغم من أن المسعودي لم يجل كثيراً داخل الهند إلا أنه كان يدرك تماماً مدى ضخامة هذا القطر وحصوبته إذ يصفه فيقول « وأرض الهند أرض واسعة في البر والبحر والجبال ومُلكهم متصل ببلاد الزانج وهي بين مملكة الهند والصين وتضاف إلى الهند^(١) . والهند متصلة مما يلي الجبال بأرض خراسان والسند وأرض التبت . وبين ممالك الهند تباين وحروب ولغاتهم مختلفة وأراؤهم غير متفقة^(٢) . وعلى الرغم من سواد بشرتهم فقد ميزهم عن السودان والزنج فيقول في موضع آخر « والهند في عقولهم وسياساتهم وحكمتهم ... وصفاء أذهانهم بخلاف سائر السودان والزنج^(٣) . مما يوضح أنه كان على علم بمدى عطائهم في مجال الفكر البشري .

بلاد السند :

ومن غير الواضح كيف بدأت رحلته إلى بلاد السند لزيارة الثغور الإسلامية والحديث عن قشмир وإن كان قد حدد تاريخها بعام ٣٠٤ هـ / ٩١٢ م . ولكن إذا ما تغاضينا عن استطراداته الكثيرة وأخذنا بالسياق العام لحديثه عن السند وماوالاه شمالاً من بلاد قشмир (كشمير) فإننا سنتتبع مسيرته من الشمال إلى الجنوب . زار بداية مدينة بوورة^(٤) حاضرة ملك القنوج وتقع عند منبع أحد روافد نهر « مهران السند » . وهنا يذكرنا بالخطأ الذي وقع فيه الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م) عندما زعم أن هذا النهر من النيل . فقد عاين بنفسه إنعدام الصلة بينهما ، بل بينه وبين أي نهر آخر . وفي هذا المقام يشير إلى مدى اقتناعه بأهمية المعاينة والتقصي بقوله : « وليس من لزم جهة وطنه وقنع بما تُمَيِّ إليه من الأخبار عن اقليمه كمن قسم عمره على قطع الأقطار ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار^(٥) .

(١) م. ج ١ ص ١٧٥ .

(٢) شرحه .

(٣) شرحه ص ٨٢ .

(٤) شرحه ص ١٦٦ بوورة مدينة لم يأت على ذكرها ياقوت في معجمه والأعل أنها كلمة مُحرفة .

(٥) شرحه ص ١٢ .

أما ملك القنوج فإن مملكته مترامية الأطراف كثيرة المدن والقرى والضياع
 بها لا يدركه الأحصاء والعدد بألف ألف وثمانمائة ألف قرية بين أنهار وشجر
 وجبال ومروج^(١) . ومن بلاد القندهار في السند وجبالها يخرج النهر المعروف
 « برائد » وهو أحد الأنهار الخمسة التي منها نهر مهران السند . ويخرج نهر
 آخر من الخمسة من بلاد السند وجبالها ويجتاز بلاد القندهار ويعرف
 « ببهاطل » . ثم يشير إلى رافدين آخرين لنهر مهران السند أحدهما (نهر كابل)
 يأخذ منابعه من بلاد كابل وجبالها في أفغانستان) ، ويخرج الثاني من بلاد
 قشمير ويسمى « الراني »^(٢) .

بلاد قشمير :

ويقف بعد ذلك ليصف لنا بلاد قشمير أستاذاً إلى ما طالعه عنها فيقول
 « وقشمير هذه من ممالك السند . وهي مملكة عظيمة حصينة يحتوى مكانها
 على مدن وضياع نحو من ستين ألفاً إلى سبعين ألفاً . وقد وجدها مملكة منيعة
 يغلق عليها باب واحد وذلك لأنها تقع في جبال شواخ لا سبيل للرجال أن
 يتسلقوا عليها ولا للوحوش أن يلحق بعلوها ولا يلحقها إلا الطير . وتشق
 الجبال أودية وعرة تجري بالمياه وتغطي جوانبها أشجار وغياض^(٣) .
 ثغرا الملتان والمنصورة :

ويأخذنا بعد ذلك جنوباً إلى الملتان في غربي البنجاب وهو ثغر من ثغور
 المسلمين الكبار دخله بعد الثلاثمائة للهجرة والملك بها أبو اللهاب المنبه بن
 أسعد القرشي^(٤) . وحول هذا الثغر من ضياعه وقراه عشرون ومائة ألف قرية
 مما يقع عليه الإحصاء والعد . ولعل أهم ما جذب انتباهه في هذا الثغر الصنم
 المعروف بالمولتان ، يقصده السند والهند من أقاصى بلادهم بالذنور والجواهر
 والعود وأنواع الطيب . وأكثر أموال صاحب المولتان هذا مما يحمل إلى هذا

(١) المصدر السابق ص ١٦٦ .

(٢) لروافد نهر السند في الوقت الحاضر أسماء مختلفة في أعليها هي : كابل وشناب إوراني وجيلم
 وستلج . أما نهر الراني الذي يشار إليه كنهر رابع فهو في الواقع امتداد لنهر السند الذي ينبع من
 قشمير . م . ح ١ ص ١٦٦ .

(٣) شرحه .

(٤) عن الفتح الإسلامي لبلاد السند راجع :

O. H. Spate, India and Pakistan, London 1964, pp. 144-167.

الصنم .. ثم يضيف « وإذا نزلت الملوك من الكفار على المولتان وعجز المسلمون عن حربهم هددوهم بكسر هذا الصنم ، فترحل الجيوش عند ذلك »^(١) .

ويتقدم في أثناء رحلته تلك جنوباً إلى تغر آخر من تغور الإسلام هو بلاد المنصورة على نهر السند وكان دخوله إليها في وقت دخوله المولتان ، والملك عليها أبو المنذر عمر بن عبد الله . وتقع هاتان المدينتان اليوم في إقليم البنجاب الغربى بدولة الباكستان وهو إقليم لا يزال غنيا بموارده المائية وزروعه المختلفة وكثرة قراه وكثافة سكانه^(٢) . وقد لاحظ أنه إلى الجنوب من مدينة المنصورة يتشعب النهر إلى شعبتين تصبان في البحر الهندي عند مدينة شاكرة^(٣) من أعمال المنصورة على بعد ميلين من مدينة الديل (كراتشي حديثا) . ويقدر أن جميع ما للبلاد المنصورة من الضياع والقرى ثلثائة ألف قرية ذات زروع وأشجار وعمائر متصلة . وعلم أثناء إقامته فيها أنها كثيرة الحروب يشنها حنس يقال لهم « الميد » وهم نوع من السند . ولم يفته أن يطلع على أصل تسمية المنصورة ، فيقول : « سميت المنصورة باسم منصور بن جهور عامل بنى أمية » . كما لم يفته أن يذكر أن لملك المنصورة فيله حربية ، وهى ثمانون فيلا يحوط كل فيل وقت الحرب خمسمائة رجل وبذلك يكون قادرا وحده على محاربة ألوف من الخيل . ويتبع ذلك بطرفة من طرفه فيقول « رأيت له فيلين عظيمين كانا موصوفين عند ملوك السند والهند لما كانا عليه من البأس والنجدة والأقدام على قتل الجيوش .. ولأحدهما أخمار عجيبة مشهورة في تلك البلاد ومنها أنه مات بعض سؤاسه فمكث أياما لا يطعم ولا يشرب ، يُبْدَى الحنين ، ويظهر الأنين ، كالرجل الحزين ودموعه تجري من عينيه لا تنقطع »^(٤) . وقد لاحظ أثناء إقامته في المنصورة أن الفيله أنواع : منها ما يحارب ومنها ما يجر العجل ونوع ثالث يحمل الأثقال ويستعمل في دياس الأزر وغيره من الأقوات كدوس البقر في التيدّر^(٥) .

(١) ج ١ ص ١٦٧ .

(٢) O. H. Spate, pp. 454-467

(٣) ج ١ ص ١٦٧ .

(٤) م ج ١ ص ١٦٩ .

(٥) شرحه .

ممالك هندية :

وقد بدأ بمملكة البلهرا وهي تشرف بساحل طويل على بحر لا روى السالف الذكر . ويرجع أنها كانت تمتد إلى خليج كمباى حاليا . ومن مدنها الساحلية صيمور وسوبارة وتانه . (شكل ١) . وتنتهى إلى الساحل أنهار عظيمة تجرى من الجنوب إلى الشمال بالضد من أنهار العالم^(١) .

وملك البلهرا كان يعز المسلمين على الرغم من كونه كافرا . فقد كان الإسلام فى ملكه عزيزا مصونا . وكان للمسلمين مساجد وجوامع معمورة بالصلوات . ويضيف أن أهل مملكته يزعمون أن طول أعمار ملوكهم إنما لسنة العدل واکرام المسلمين . بل أنه يقلد المسلمين عندما يرزق جنوده من بيت ماله^(٢) . ويقع إلى الشمال الغربى من هذه المملكة مملكة أسماها مملكة الخزر^(٣) وملكها كثير الخيول والإبل والجنود ، ويزعم أنه ليس فى ملوك العالم أجل منه إلا صاحب بابل وهو الإقليم الرابع الذى يرفع المسعودى فى شأنه فى أكثر من موضع فى مصنفية الباقيين . وفى أرضه معادن الذهب والفضة كثير الفيلة وهو مع ذلك مُبغض للمسلمين^(٤) . ويقع على حدود مملكة « البلهرا » مملكة « الطافن » ومملكة « رهمى » التى يتعامل أهلها بالودع . ويذكر أن ملك الطافن موادع لمن حوله وهو مكرم للمسلمين^(٥) . أما ملك « رهمى » فهو أكثر جيوشاً وفيلة وخيولا من ملوك « البلهرا » والخزر والطافن مجتمعين . وفى بلده العود والذهب والفضة والثياب الرقيقة والكركدن (وحيد القرن)^(٦) . وقد أفاض طويلا كدأبه فى الحديث عن هذا الحيوان وغيره من الحيوانات والطيور التى شاهدها أو قرأ عنها . بل إنه ذهب فى حديثه هذا إلى انتقاد قول الحافظ فى « كتاب الحيوان » أن « الكركدن » يُحمل فى بطن أمه سبع سنين وأنه يخرج رأسه من بطن أمه فيرعى ثم يدخل رأسه فى بطنها .

(١) يستطرد المسعودى فيقول « وليس فى أنهار العالم ما يجرى من الجنوب إلى الشمال إلا نيل مصر » ج ١ ص ١٧٠ . وقد كان هذا رأى سائدا منذ أيام اليونان . واليوم كثيرة هى الأنهار المعروفة التى تجري من الجنوب إلى الشمال .

(٢) م . ج ١ ص ١٧٠ .

(٣) يسميها التاجر سليمان مملكة الخزر — سلسلة التواريخ — مرجع سابق ص ٢٩ ، ويبدو أن ثمة تصحيحاً فى هذه الكلمة .

(٤) م . ج ١ ص ١٧٠ .

(٥) شرحه

(٦) م . ج ١ ص ١٧١ .

وقد تأكد له خطأ الجاحظ بعد أن استفسر حول الموضوع ممن سلك مملكة رهمي من أهل سيراف وعمان ومن رأى بأرض الهند من التجار «(١)». فقد تعجبوا من قول الجاحظ واخبروه أن حملة وفصاله كالبقر والجواميس . ثم يسأل مستنكراً كيف وقعت هذه الحكاية للجاحظ : « أمن كتاب نقلها أو نخب أخبره بها »(٢) .

ويواصل الرحالة الحديث عن الممالك الهندية فيقول إنه يلي مملكة « رهمي » مملكة لا بحر لها هي مملكة « الكامن »(٣) . ولا نعرف على وجه اليقين موقعها من شبه القارة الهندية ولكن من سياق حديثه يمكن القول أنها تقع في الشمال الغربي منها . ويصف أهل هذه المملكة بأنهم بيض مخرمو الأذان ، لهم فيلة وإبل وخيول ، وعندهم فلفل يسير ولكن عنبرهم كثير . ثم يلي هذه المملكة مملكة « الموجه » وهذه تحتل منطقة جبلية شاهقة (ربما الهيمالايا) وأهلها بيض أيضاً ، ولكن غير مخرومي الأذان ولهم خيل كثيرة وعدد منيعه ومسكنهم موصوف يعرفه من غنى بحمله وتجهيزه ، وهم يتشبهون بأهل الصين في لباسهم . وجبالهم منيعة ، ولا يعلم بأرض السند والهند ولا فيما ذكر من هذه الممالك جبال أطول منها ولا أوعر(٤) . وينتهي في وصفه لتلك الممالك بمملكة « المايد » وهي مجاورة لمملكة الصين ولكن بينهما جبال منيعة يصعب اختراقها : ولأهل المايد مدن كثيرة وعمائر واسعة . وتستخدم ملوكهم الخدم وغيرهم في العمل بالمناجم وجبايات الأموال تماماً كما تفعل ملوك الصين . والمايد أهل بأس عظيم وبطش ويخشاهم ملك الصين . لذلك فإذا دخل رُسل من ملكهم أرضه فهو عادة يجعلهم تحت المراقبة ولا يتركهم ينتشرون في بلاده خوفاً من أن يقفوا على عوراتها(٥) .

(١) م . ج ١ ص ١٧٤ .

(٢) شرحه .

(٣) م . ج ١ ص ١٧٢ .

(٤) شرحه ص ١٧٣ .

(٥) شرحه

الصين وأهلها :

وينقل عن كتب السائقين أخباراً تتصل بأنساب أهل الصين وبدئهم فيقول : إنهم ولد عابور وأنهم فرقة سارت على ساحل البحر حتى انتهوا إلى أقاصيه من بلاد الصين فتفرقوا في تلك البقاع والبلاد .. ومضروا فيقول : إنهم ولد عابور وأنهم فرقة فتفرقوا في تلك البقاع والبلاد .. ومضروا الأمصار ومدنوا المدائن .. واتخذوا لمملكته مدينة عظيمة ، وبينها وبين ساحل بحر الصين مسافة ثلاثة أشهر مدن وعمائر متصلة^(١) . ثم يتابع تواريخ ملوكهم مع ما يرتبط به من أساطير تعكس غنى هذا البلد واتساع عمارته ودقة صناعات أهله . وفي أثناء حكم هؤلاء الملوك الأوائل كانت الأمور منتظمة والأحوال مستقيمة والخصب والعدل لهم شامل . وكان أهل الصين كما يوضح شعوباً وقبائل كقبائل العرب وأفخادها . وينسب الرجل منهم إلى خمسين أباً .. ولا يتزوج أهل كل فخذ من فخذهم .. وبزعمهم أن في ذلك صحة النسل وقوام البنية وأنه أصح للبقاء وأتم للعمر . وهكذا يخلط الزمان بالمكان بحيث لا يقوم حد فاصل بين التاريخ والجغرافية .

ويواصل حديثه التاريخي الجغرافي هذا فيقول وظلت أمور الصين مستقيمة في العدل حتى فتنة يانشو سنة ٢٦٤ هـ / ٨٧٧ م التي قضى فيها على نظام الملك السابق فتدهورت أحوال البلاد بعد ازدهارها بسبب ما أصاب منها من تخريب وما لحق بأهلها من قتل وتشريد . وفي هذا يقول : فشن (يانشو) الغارات على العمائر حتى نزل مدينة خانفو^(٢) (كانتون حالياً) وافتتحها عنوة وهي مدينة عظيمة على نهر عظيم (نهر سيكيانج) أكبر من نهر دجلة يصب إلى بحر الصين^(٣) .. وتدخل هذا النهر سفن التجارة الواردة من بلاد البصرة وسيراف وعمان ومدن الهند وجزائر الزانج (جزر الهند الشرقية) والصف (جزائر اندمان) (شكل ١) . وقد قتل من أهل مدينة « خانفو » خلق من

(١) م. ج ١ ص ١٣٢ .

(٢) شرحه ص ١٣٨ .

(٣) شرحه — بعد فتنة يانشو هذه صارت مراكز أهل سيراف وعمان لاتبلغ الصين وإنما تكون نهاية رحلتها عند بلاد كلة (ربما عند موضع سنغافورة حالياً) وهي في منتصف الطريق إلى بلاد الصين ثم تأتي سفن الصين لتنقل متاجر العرب إلى الصين . على أن حكومة الصين بدلت في القرن الرابع للهجرة (العاشر الميلادي) جهداً كبيراً لاحتداب التجار من البحر إلى الصين مباشرة ، راجع امتر — ج ٢ ص ٣٢٦ . ونقل المسعودي عن التاجر سليمان وأبي زيد السيرافي — راجع سلسلة التواريخ ص ٦٢-٦٧ .

أهلها لا يُحصَوْنَ كثرة . وأحصى من المسلمين والنصارى والمجوس ممن قتل فكان مائتي ألف^(١) . وهنا يلفت انتباه القارىء إلى سبق ملوك الصين في أجزاء التعداد فيقول : « إن ملوك الصين تحصى من في مملكته من رعيته وكذا من جاورها من الأمم ، ليصير ذمة لها في دواوين لها ، رويت بكتاب قد وُكِّلوا بإحصاء ذلك . وهم إلى ذلك لهم اهتمام بالبريد ففى سائر الطرق كانت هناك بعال للبريد مسرجة ومعدة لنقل الرسائل^(٢) .

المسلمون فى الصين :

ومما يسرده المسعودى يتضح أن جالية كبيرة من المسلمين كانت تعيش فى الموانى والمدن الرئيسية فى الصين وأن الملوك كانوا يعاملونهم معاملة طيبة عادلة . ويضرب مثلاً على مدى انقياد الملوك فى الصين للعدل قصة ذلك التاجر من أهل خراسان الذى دخل الصين بتجارته فلقى ظلماً من ولاية الملك ، فذهب لمقابلة الملك فأنصفه ممن ظلمه ورد له متاعه .

ويضرب مثلاً على مدى احترام ملوك الصين لأهل بيت النبوة قصة ذلك الرجل القرشى الذى سبقت الإشارة إليه وكان من أرباب النعم ، وخرج من سيراف متجهاً إلى الهند ومن الهند أبحر حتى بلغ الصين فنزل فى مدينة خانفو فلما علم أن الملك فى مدينة أخرى من كبار مدنها وهى خمدان سافر إليها وأقام بباب الملك يرفع الرقاع ويدكر أنه من أهل بيت نبوة العرب فأمر الملك بإنزاله فى بعض المساكن وتزويده بجميع ما يحتاج إليه^(٣) .

مدينة خمدان حاضرة الصين :

وعن صفة مدينة خمدان تلك يذكر المسعودى ما يسمعه عنها من معاصره أبى زيد الحسن السيرافى بالبصرة نقلاً عن هذا القرشى . فيقول : هى مدينة واسعة كثيرة السكان مقسومة على قسمين يفصل بينهما شارع عظيم طويل

(١) م. ج ١ ص ١٣٨ قضت غارات تان شو عام ٢٦٣ هـ / ٨٨٠ م على مراكز الجاليات الإسلامية وغيرها من الجاليات خاصة فى مدينة خانفو كما هو واضح من هذا النص . راجع ايضا

متر ج ٢ ص ٣٢٣ .

(٢) شرحه ص ١٤١ .

(٣) م. ج ١ ص ١٤٢ .

عريض ، فالملك ووزيره وقاضى القضاة وجنوده وخصيانه وجميع أسبابه .
 الشق الأيمن منه مما يلي انشرق لا يُخالطهم أحد من العامة وليس فيه شيء من
 الأسواق ، بل أنهار في سككهم مطردة وأشجار منتظمة ومنازل
 فسيحة وفي الشق الأيسر مما يلي المغرب ، الرعية والتجار والميرة والأسواق^(١) .
 ويضيف أن هذه البلاد (الصين) فيها كل نزهة وغيضة حسنة وأنها مطردة
 إلا النخيل فإنه معدوم عندهم وأما أهل الصين فمن أحذق خلق الله كفا
 بنقش وصنعة وكل عمل لا يتقدمهم فيه أحد من سائر الأمم ، وهذا قليل من
 كثير عن الصين رده في كتابه « أخبار الزمان » ، كما ذكر في « الكتاب
 الأوسط » جملاً لم يتعرض لذكرها في الكتاب السابق^(٢) .

وللصين أنهار كبار مثل الدجلة والفرات وتجري من بلاد الترك والتبت
 والصغد^(٣) (بين بخارى وسمرقند) .

طريق الحرير :

وهناك جبال النوشارد فإذا كان في الصيف رؤيت في الليل نيران قد
 ارتفعت من تلك الجبال .. ومن هناك يحمل النوشادر^(٤) . ويصف الطريق البري
 من خراسان إلى بلاد الصين (طريق الحرير) عبر جبال النوشادر في فصل
 لشتاء (شكل ١ . » فمن أراد من بلاد خراسان أن يسلك إلى بلاد الصين ..
 صار إلى واد بين تلك الجبال .. فيأتي إلى أناس هنالك على فم الوادي فيرغبهم
 في الأجرة النفيسة فيحملون ما معه على أكتافهم ، حتى يخرجوا إلى ذلك
 الرأس من الوادي وهنالك غابات ومستنقعات للماء فيطرحون أنفسهم في
 ذلك الماء لما قد نالهم من شدة الكرب وحر النوشادر . ثم ينهب القاريء إلى
 « أن هذا الطريق لا يسلكه شيء من البهائم لأن النوشادر يلهب نهاراً في
 الصيف فإذا كان الشتاء وكثرت الثلوج .. (وأنظفاً) لهيب النوشادر سلك
 الناس والبهائم ذلك الوادي . والمسافة بين بلاد خراسان على الموضع (بداية
 وادي النوشادر) إلى الصين نحو أربعين يوماً بين عامر وغامر ورمل وفي غير
 هذه الطريق مما يسلكه البهائم نحو أربعة أشهر إلا أن ذلك في خفارات أنواع من
 لترك^(٥) .

(١) شرحه ص ١٤٦ . راجع أيضاً « سلسلة التواريخ » مرجع سابق ص ٨٥-٨٦ .

(٢) شرحه .

(٣) م . ج ١ ص ١٥٦ .

(٤) شرحه ص ١٥٧ .

ويتحدث عن رؤيته لشيخ بمدينة بلخ ذا رأى وفهم ، قد دخل الصين مراراً كثيرة ولم يركب البحر قط كما رأى عدة من الناس ممن سلك من بلاد الصغد (بين بخارى وسمرقند) على جبال النوشادر إلى أرض التبت والصين وبلاد الهند متصل ببلاد خراسان والسند ، مما يلي بلاد المنصورة والمولتان والقوافل متصلة من السند إلى خراسان وكذلك إلى الهند إلى أن تتصل هذه الديار ببلاد زبلستان وهي بلاد واسعة تعرف بمملكة فيروز بن كيك وفيها قلاع عجيبة ممتعة ولغات مختلفة وأمم كثيرة^(١) .

بلاد التبت :

ويواصل الرحالة حديثه عن الصين فيصف بلاد التبت بأنها مملكة متميزة من بلاد الصين وأنها متاخمة لأرض الهند وخراسان ولمفاوز الترك ، ثم يزعم أن الغالب عليهم حمير وفيهم بعض التبابعة^(٢) . وهم حضّر وبدو وبواديهم ترك لا تدرك كثرة وهم معظمون من سائر أجناس الترك ولهم مدن وعمائر كثيرة ذوات منعة وقوة ويسمون ملوكهم « بخاقان » . ولببلاد التبت خواص عجيبة في هوائها وسهلها ومائها وجبلها ولا تحصى عجائب تمارها ورهرها ومروحها وهوائها وأنهارها . ثم يفيد أن الإنسان في التبت لا يزال أبداً فرحاً مسروراً لا تعرض له الأحزان ولطيب الحياة لا يكاد يرى في هذا البلد شيخ حزين ولا عجوز بل الطرب في الشيوخ والكهول ..^(٣) . ومع ذلك فالظن أنه لم يزر هذه المملكة الجبلية واعتمد على رواية الرواة .

ولا يخفى اهتمامه بالمسك كسلعة ترفية تفضل عن مسك الصين . ويحمل من التبت إلى كل بلاد الإسلام في عمان وفارس والعراق وغيرها من الأمصار . فيقول وفي بلادهم الأرض التي بها طباء المسك التبتى الذى يفضل على الصينى بجهتين : أحدهما أن طباء التبت ترعى سنبل الطيب وأنواع الآفاوية وطباء الصين ترعى الحشيش .. والجهة الأخرى أن أهل التبت لا يتعرضون لإخراج المسك من نوافجه . ثم يفيض في وصف المسك التبتى وكيفية تجهيزه محتفظاً بميزاته^(٤) .

(١) م. ج ١ ص ١٥٧ .

(٢) م. ج ١ ص ١٥٨ .

(٣) شرحه .

(٤) شرحه ص ١٥٩ ، النافجة كلمة فارسية ومعناها الجلد الذى يتجمع فيه المسك .

رحلات المرحلة الثانية

٣٠٦-٣١٩ هـ / ٩١٨-٩٣١ م

٣٢٠-٣٣٠ هـ / ٩٣١-٩٤٢ م

هذه مرحلة طويلة تنقسم في رأينا إلى مرحلتين ثانويتين : الأولى منهما تمتد بين عامي ٣٠٦-٣١٩ هـ / ٩١٨-٩٣١ م. وتمتد الثانية بين عامي ٣٢٠-٣٣٠ هـ / ٩٣١-٩٤٢ م. والمرحلة الثانوية الأولى هي من أسف غامضة بل إن السنوات الثلاث التالية يمكن أن تضاف إليها. ويرجع هذا الغموض إلى أن المسعودي كما أسلفنا لم يحدد تواريخ تنقلاته من بلد إلى آخر بل ولا رسم لنا خط سيره براً وبحراً كما فعل من جاء بعده من الرحالة كابن حبير (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) وابن بطوطة (٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) على سبيل المثال. والمرجح أنه قضى هذه المرحلة يطوف بعض جهات في العراق وسورية وربما الجزيرة العربية أيضاً^(١). لكنه لم يكشف لنا إلا عن القليل من مشاهداته واتصالاته وكل ما تحت أيدينا هذا الخصوص إشارات متناثرة عن بطائح البصرة وأنهارها، وصفة البحر الميت ونهر الأردن وانطاكية كثغر من ثغور الإسلام تقوم فيه. كنائس قديمة على مقربة من المساجد وتحيط به الأسوار. ولا يمكن أن نعد في هذا المقام فضائل العراق من قبيل المشاهدات فهي من النقول المتواترة. وقد أدخلت في باب الأدب الجغرافي النظري^(٢).

وفي المرحلة الثانوية الثانية التي امتدت بين عامي ٣٢٠-٣٣٠ هـ / ٩٣١-٩٤٢ م زار جهات أرمينية وأذربيجان والران والحبال والديلم وطبرستان وسجستان وخراسان وما وراء النهر. أما ما كتبه عن بعض الممالك التي تقع إلى الشمال من جبل القببخ (جبال القوقاز) وإلى الجنوب منه وعن بلاد الخزر والبرغز (البرغر) في حوض الأورال والفلجا فاعتمد الرواية سبيلا إلى التدوين^(٣).

(١) Ch. Pellat - Almas'udi - p. 784 مرجع سابق

(٢) انظر حديثه عن الأقليم الرابع في قسم الأدب الجغرافي الطري.

(٣) اعتماده الرواية بديلا عن المشاهدة أفصح عنه بقوله « وليس لنا في ذلك إلا القل وأد نعزوه إلى

رواية » ، م. ج ٢ ص ٢٢٣ .

وبرى أن اسم « القبخ » كما جاء في « مروج الذهب » محرف والصحيح « القبق » كما أوردها معاصره ابن حوقل في كتابه « صورة الأرض » بيروت ١٩٨٠ ، ص ٢٨٦ ، وسأخذ بهذا الأسم الصحيح عندما نعرض لهذا الجبل .

ممالك إسلامية :

يبدأ وصفه لهذه البلاد بالإشارة إلى جبل القَبْقُ (جبال القوقاز) وهو جبل عظيم ذو أودية وشعاب وفجاج فيه أم لا يعرف بعضهم بعضاً لخشونته واختناعه وتسلسل المياه من أعلاه وعظم صخوره وأحجاره ثم هو يفصل بين الكفار في شماليه والمسلمين إلى الجنوب منه . ومن الكفار شعب اللان وأنواع الترك وغيرهم . وتمتد أحد شعبانه على بحر الخزر (بحر قزوين) مما يلي مدينة الباب . وعلى الجانب الآخر يمتد أحد شعبانه إلى بحر بنطس (البحر الأسود) لينتهى إلى خليج القسطنطينية . ويصف مدينة طرابزنده (طرابزون) التي تطل على بحر بنطس بأنها مدينة تجارية يأتي إليها كثير من الأمم للتجارة من المسلمين والروم والأرمن وغيرهم . ومن الممالك الإسلامية التي تقع جهة الشمال مما يلي جبل باكه (باكو) مملكة شروان وكان اسم ملكها عام ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م محمد بن يزيد الذي تملك مدينة الباب بعد موت صهره عبد الملك بن هشام . وقد استطاع محمد بن يزيد أن يمد ملكه شمالاً إلى مملكة الران وجنوباً إلى بلاد الموقان (شرقي أذربيجان) وتلى مملكة شروان هذه مملكة طبرستان وملكها مسلم . ثم يتحدث عن أمة داخلية في جملة ملوك الخزر وكانت دار ملكها عندما زارها مدينة أتل . ويصفها بأنها من ثلاثة قطع يقسمها نهر عظيم أتل (الفلجا) يرد من أعالي بلاد الترك وهذه المدينة في جزيرة تقع في وسط النهر ، وقصر الملك وسط هذه الجزيرة ، وبالجزيرة جسر إلى أحد الجانبين من سفن . وينقل عن سابقيه من الرحالة أن في هذه المدينة خلق من المسلمين والنصارى واليهود والجاهلية^(١) . فأما اليهود فالملك وحاشيته منهم وجيشه من الخزر . ويعود إلى التاريخ فيخبرنا متى صار الملك يهودياً فيقول « تهود ملك الخزر في خلافة هارون الرشيد (١٧٠—١٩٣ هـ / ٧٨٦—٨٠٩ م) وقد انضاف إليه خلق من اليهود قدموا إليه من سائر أمصار المسلمين ومن بلاد الروم ، ويضيف أن سبب ورود اليهود من بلاد الروم أن ملك الروم في وقت زيارة المسعودي وهو (٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م) أكره من كان في ملكه من اليهود على دين النصرانية فتهارب خلق منهم إلى مملكة الخزر^(٢) .

(١) عبدة الأوثان .

(٢) م . ج ١ ص ١٧٨—١٧٩ .

ومن الأجناس التي سكنت مملكة الخزر هذه ، الصقالبة والروس وكانوا من الجاهلية^(١) ويعيشون في أحد جانبي العاصمة (أتل) ، وقد أبدى عجبه من بعض عاداتهم : فيذكر أنهم يحرقون موتاهم ودواب ميتهم وآلاته والحلى . إلا أن الغالب في هذه المملكة هم المسلمون ومهم جند الملك ويقول عليهم في حروبه ، قدموا أصلاً من بلاد خوارزم (حيث يعرفون باللارسية) ، بعد أن حل بها الجذب . وقد أقاموا في هذا البلد على شروط بينهم : أحدها — إظهار الدين والمساجد والآداب ، وثانيها : أن تكون وزارة الملك منهم^(٢) ، وثالثها : أنه متى كان ملك الخزر حرب مع المسلمين لا يحاربون أهل ملتهم . وفوق ذلك فقد كان لهم قضاة مسلمون . ولم يكن اللارسية هم وحدهم من المسلمين . فقد كان في المملكة خلق من المسلمين من غيرهم يعملون بالتجارة والصناعة فروا إلى هذه البلاد لإنتشار العدل وسيادة الأمن بها . وكان لهم مسجد جامع تشرف منارته على قصر الملك ، ومساجد أخرى فيها مكاتب لتحفيظ القرآن ..

ويواصل ذكر أحوال الخزر وأعمالهم فيقول « وللخزر زوارق يركب فيها التجار في بحر فوق المدينة (أتل) يقال له البرطاس (نهر الأورال) ، تسكن على جوانبه أمم من الترك يحكمها ملوك من الخزر . أما عمائرهم فمتصلة بين مملكة الخزر السالفة الذكر وممالك البرغر (البلغار)^(٣) . التي تحتل الحوض الأعلى من النهر . ويحمل على النهر من بلاد الترك هذه جلود الثعالب السود والحمر . ويلبس السود منها ملوك العرب والعجم .

وقد أسس البرغر (البلغار) في ذلك الوقت مملكة في الحوض الأوسط للفلجا وأخرى في حوض الدانوب . وكان الفلجا الأعلى يرتبط بطرق قوافل بخراسان عبر بوادي الترك . ويخبرنا المسعودي أن ملك البرغر في حوض الفلجا مسلم ، أسلم أيام المقتدر بالله وذلك بعد العشر وثلاثمائة للهجرة / ٩٢٢ م . ولأنهم يعيشون في الإقليم السابع فإن ليل البلغر (البلغار) في نهاية من القصر

(١) كان اسم هذا الورير — أحمد بن كويه . م . ح ١ ص ١٧٩ .

(٢) عن البرغر راجع ياقوت الحموي ، معجم البلدان ج ١ ص ٤١ .

في بعض السنة^(١) . ويبدو أن هذا الوصف نقله عن ابن فضلان الذي خرج في بعثة إلى الأصقاع الشمالية في عام ٣٠٩ هـ / ٩٢١ م^(٢) .

ثم يحكى عن الروس وأممهم وأخبارهم وحروبهم وصلاتهم التجارية التي بلغت بلاد الأندلس مروراً ببلاد الخزر والقسطنطينية ورومة . ثم يقص علينا قصة تكشف عن قدرته على الاستدلال حول صلة بحر الخزر (قزوين) ببحر بنطس (الأسود) . فقد قدم الأدلة على عدم وجود خليج يصل بحر الخزر (قزوين) ببحر بنطس (الأسود)^(٣) . وكان القول بوجود مثل هذه الصلة شائعاً منذ أيام بطليموس الجغرافي (ق ٢ م) . ويواصل المسعودي حديثه عن بلاد بحر الخزر فيذكر طبرستان وبلاد الحيل والديلم . ومن المدن في هذه الأصقاع يذكر الهيم وهي قرية من السواحل وآمل Amul التي تقع على بعد ساعة منها ، وباكه (باكو) وهي معدن النفط الأبيض ، وتقع على ساحل مملكة شردان . ومن بحر الخزر تختلف المراكب فيه بالتجارات في هذه المواضع المذكورة .

أطمات وبزاة :

واسترعى انتباهه وحود أطمة (مخروط بركاني) قرب باكة (باكو) ويصفها بأنها عين من عيون النار لا تهدأ على سائر الأوقات . ولم تكن هذه الأطمة هي الوحيدة في المنطقة ففي بحر الخزر جزيرة فيها أطمة عظيمة تزفر في أوقات من السنة ، فتظهر منها نار عظيمة تذهب في الهواء فتضيء الأكثر من هذا البحر . ويقف ليقارن هذه الأطمة بتلك التي رآها أو قرأ عنها مثل أطمة بلاد صقلية وأطمة بلاد المهرج (الجزر الأندونيسية) وهي الأشد صوتاً والأسود دخاناً وأطمة بلاد الشحر بين اليمن وعمان التي لها صوت كالرعد يسمع من أميال كثيرة .

وكما استوقفه منظر البراكين النشطة فقد استهواه منظر البزاة البيض في بعض جزائر بحر الخزر المقابلة لساحل جرجان فهي أسرع البزاة وأحسنها وأجرؤها

(١) م . ج ١ ص ١٨٢ .

(٢) انظر ركي حسن - الرحالة المسلمون - القاهرة ١٩٤٥ ، ص ٢٦-٢٩ .

(٣) م . ج ١ ص ١٨٥ .

قلوباً خاصة إذا لم يختلف عليها الغداء^(١) . ثم يفيض في الحديث عن هذا الطائر مما يكشف عن اهتمامه بمخلوقات الله من الحيوانات والطيور ذات الصفات المعتبرة .

ممالك غير إسلامية :

ويرحل المسعودي بعد ذلك إلى الغرب من مدينة الباب (دربند) حيث مملكة جيدان وملكهم رجل مسلم (عام ٣٣٢ هـ / ٩٤٢ م) وليس في مملكته مسلم غيره وولده وأهله . ويعيش بين هذه المملكة ومدينة الباب أناس من المسلمين عرب لا يحسون شيئاً من اللغات غير العربية ، وهم قرويون يعيشون في آجام وغياض وأودية^(٢) . ويلى مملكة جيدان مما يلي جبال القبقق والسريير ملك مسلم يعرف بلده بالكُرج (جورجيا) (شكل ٢) ، ويلقب الملك ببرزبان . وثمة مملكة أخرى غير بعيدة عن الكُرج هي مملكة زريكرا . ويشتهر سكانها بعمل الزرد واللجم والسيوف . وهم متعدّدو الديانات فمنهم المسلمون ومنهم اليهود والنصارى وبلدهم وعر ، ولذا فقد امتنعوا بوعورته على من جاورهم من الأمم^(٣) . ثم يلي مملكة زريكرا مملكة السريير وتقع على سلسلة من جبال القبقق بين مملكة اللان والباب . وملكها يدعى فيلان شاه يدين بالنصرانية وله اثنتا عشر ألف قرية . وبلد فيلان شاه هذا بلد خشن منيع لخشونته ، إذا ما أغار على الخزر فهو مستظهر عليهم لأنهم في سهل وهو في جبل . ولو عورتها فليس للمملكة إلا مسلكين مسلك إلى بلاد الخزر ومسلك إلى بلاد أرمينية^(٤) .

وانتقل المسعودي في ترحاله إلى مملكة اللان وتقع على مقربة من جبل القبقق الذى يشكل الحد الشمالى بين بلاد الخزر من ناحية والممالك التى ظهرت بين بحر الخزر وبحر بنطس (الأسود) . وملك اللان هذا يقال له كركنداج كما يقال لدار مملكته مغص^(٥) . وكانت ملوك اللان قد دخلت في الإسلام أيام الدولة العباسية بعد أن كانوا عبدة الأوثان ثم تحولوا بعد عام ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م إلى ما كانوا عليه من الجاهلية . ويقف الرحالة عند خبر قلعة وقنطرة على واد

(١) م . ج ١ ص ١٨٧ .

(٢) م . ج ١ ص ١٩٢ .

(٣) شرحه

(٤) شرحه .

(٥) شرحه ص ١٩٤ .

عظيم تعرف بقلعة باب اللان بين مملكة اللان وجبل القبق . وهي إحدى قلاع العالم الموصوفة بالمنعة . ثم يحدثنا عن قصة من بناها وهو ملك قديم من ملوك الفرس يدعى سبندباد جاء ذكره في كتاب قديم أطلع عليه بعد أن نقله ابن المقفع إلى العربية ، بناها لمنع اللان من الوصول إلى جبل القبق . ثم عندما قدم المسلمون إلى هذا الصقع بقيادة مسلمة بن عبد الملك بن مروان أسكن في هذه القلعة أناساً من العرب لحراسة الموضع . ويبالغ فيقول « ولو كان رجل واحد في هذه القلعة لمنع سائر الملوك الكفار أن يجتازوا بهذا الموضع »^(١) . وعمائر اللان كما يصفها المسعودي متصلة غير منفصلة ، إذا تصايحت الديوك تجاوبت في سائر المملكة لاشتباك العمائر واتصالها^(٢) .

وانتقل من مملكة اللان إلى أمة مجاورة يقال لها كشك^(٣) لا ملك لها ، تعيش بين جبل القبق وبحر بنطس وهي أمة محبوسة تتصف بأنها أنقى أبشاراً وأصفى ألواناً من جميع الأمم في الصقع الذي يسبح فيه « ولباسهم البياض والديباج الرومي وبأرضهم أنواع من الثياب من القنب تُحمل إلى ما يليهم من بلاد الإسلام »^(٤) .

ثم يتبع ذلك بأسطورة عن أمة عظيمة لا يسميها ، تمتد بلدها بين بلاد كشك ونهر عظيم كالفرات يصب في بحر الروم وقيل بحر بنطس (الأسود) . ويقال لدار مملكتها إرم ذات العماد . هذا البلد له خبر طريف وذاك أن سمكة عظيمة تأتيهم كل سنة من هذا البحر فيتناولون منها ثم تعود ثانية فتتوجه نحوهم من الشق الآخر فيتناولون منها ، وقد عاد اللحم على الموضع الذي أخذ منه أولاً ، ويختم الرحالة الأسطورة بقوله « وخبر هذه الأمة مستفيض في تلك الديار من الكفار »^(٥) . وبعد أن يسهب في وصف القردة في بعض الجبال على مقربة من ساحل بحر بنطس والقردة في اليمن والأفاعي والحيات في سجستان^(٦) ، يواصل حديثه عن أمم تلي بلاد الخزر واللان « فثمة أمم أربع

(١) م. ج ١ ص ١٩٤ .

(٢) شرحه .

(٣) يفسر المسعودي كلمة تشك بأنها كلمة فارسية ومعناها بالعربية التيه والصلف ، م. ج ١ ص

١٩٥ .

(٤) شرحه .

(٥) شرحه .

(٦) شرحه ، ص ١٩٦—١٩٧ .

تعيش إلى الغرب منهم ترحع في أصولها إلى أب واحد منهم حضر ومنهم يلو
لكل أمة منها ملك» (١).

من غريب الأمم والبلاد :

ويتابع المسعودي حديثه عن غريب الأمم والبلاد في هذه الأصقاع فيتحدث
عن أمة أخرى بين جبال أربعة وعرة شاهقة تقف وسط صحراء . «وفيما بين
تلك الجبال دارة مقورة تحتل حسفة مجوفة غائرة في حجر صلد يكون قعرها
على نحو ميلين في مستوى الحائط الجبلي المحيط بها ولا سبيل إلى الوصول إلى
مستوى تلك الدارة . وفي أثناء الليل ترى فيها بيران كثيرة في مواضع عدة
وبالنهار ترى قرى وعمائر وأنهار تجري بين تلك القرى وناس وبهائم .. لا
يدري من أي الأمم هم ، ولا سبيل لهم إلى الصعود إلى جهة من الجهات ، ولا
سبيل لمن فوق إلى النزول إليهم بوجه من الوجوه» (٢) . ويثبت المسعودي بما
عائنه أو سمع عنه أنه كان رحالة شغوفاً باكتشاف ما غمض لبعده أو لصعوبة
النفاذ إليه .

من عجائب المخلوقات :

وهو ينقلنا بعد سرد طويل لأخبار الأمم ووصف مختصر للممالك التي
زارها أو قرأ عنها جمع فيه بين التاريخ والجغرافية والحقائق والتخيلات ، إلى
حديث مختلف تماماً عن كائنات شاهدها أو قرأ عنها . وفي هذا ولا شك
خروج عن السياق امتاعاً للقارئ . فهو يخبر بقروود علم بوجودها أو ربما رآها
في خسفة أخرى قريبة القعر وراء تلك العميقة التي سبق أن وصفها ، فيها
آجام وعياض وفيها نوع من القروود منتصبه القامات مستديرة الوجوه على
صور الناس وأشكالهم ، إلا أنها ذات شعر . وهي لا تنطق ولكن تفهم
بالإشارة يحمل الواحد منها للملوك خاصة ملوك الهند والسند والهند فيتعلم القيام على
رؤوسها بالمدات ، كما يُستعان به في معرفة السموم من المأكول والمشرب (٣) . ثم
يفيض في الحديث عن أماكن تكاثر القروود في اليمن وسيراف وعمان ومملكة

(١) م. ج ١ ص ١٩٥ ح

(٢) شرحه ، ص ١٩٦ .

(٣) شرحه .

المهراج (بعض الحرر الأندوسية) ويتبعه بأخبار عن السناس والعرايين في
البحامه ودويبات كالقنافة في سجستان والعرايس في صعيد مصر تفيد في إعادة
التوازن بين الأحياء وتقى الناس شر الحيات والعقارب مما يكشف عن تنوع
اهتماماته واتساع معارفه بالحيوانات وطبائعها وأهمية التوازن فيما بينها .

وبعد انقطاع طويل عن ذكر أخبار الأمم المحيطة بمدينة الباب وجبل القبق
وبلاد اللان والخزر مستطرداً بخبر أربع أمم تلى بلاد الخزر واللان من جهة
الغرب وهى على ما يبدو أمم من البرابرة التى عظم نفودها وشرها فى القرن
الرابع للهجرة / ١٠ م ، وما قبله سكنت الأراضى السهلية إلى الشمال من نهر
الدايوب وجنوبى روسيا الحالية ومنعت روما والقسططينية غزواتهم الخربة
لأراضيتها بحصون وقلاع انتشرت على جهة واسعة . (شكل ٢) .

أمم أخرى تسكن حول بحر الخزر :

ويواصل حديثه عن الأمم التى تسكن إلى الغرب من بحر الخزر فيذكر أمة
الأبخاز التى تلى اللان من جهة جبل القبق فى الشمال وهى مملكة نصرانية
معلوبة على أمرها من قبل ملك اللان . وتليها مملكة الجورية وهى نصرانية
كذلك . ويحدثنا عن كيف اهتزت هبة المسلمين فى ثغر تفليس وما حوله أيام
المتوكل (ت ٢٤٣ هـ / ٨٥٧ م) بعد أن كان من ثغور الإسلام ذات المنعة
والقوة والنفوذ على ما حوله أيام الدولة الأموية . ويتحدث عن مظاهر ضعف
المسلمين فى تفليس بقوله « فامتنع من جاورهم من الممالك من الإذعان لهم
بالطاعة واقتطعوا الأكثر من ضياع تفليس وانقطع الوصول من بلاد الإسلام
إلى ثغر تفليس »^(١) (شكل ٢) .

ويعدد المسعودى بعد ذلك أسماء ممالك نصرانية ووثنية تسكنها جاليات
إسلامية تلى مملكة اللان يمزج فيها التاريخ بالجغرافية كعادته هى : الصنارية
وشكين وقيله . ثم يذكر الأنهار التى تصب فى بحر الخزر منحدره من
المرتفعات فى الغرب ومنها نهر الكُر (كورا حالياً) الذى يمر ببلاد الأبخاز حتى
يأتى ثغر تفليس ثم يغادره إلى قرب مدينة بردعة قصبة أرمينية ثم يلتقى نهر الرس
(أراس حديثاً) ترفده روافد تأخذ من مرتفعات الران (أو أران)^(٢) فى
أرمينية قبل أن تنصب مياهها فى بحر الخزر جنوبى باكه (باكو حديثاً) .

(١) م ح ١ ص ٢٠٣ .

(٢) راجع ياقوت ح ١ ص ١٣٦ .

في جورجيات وخراسان وسجستان

ونحده بعد ذلك في جورججان في شرق بحر الخزر فيركب من ميناء أبسكون ليبخر إلى الهم ميناء طبرستان في ذلك الوقت^(١). ويذكر أنه على سواحل بحر طبرستان يسكن الجيل والديلم وأن آمل Amul أهم مدن مملكة طبرستان تقوم في ظل جبل دنباوند (ديمباوند حديثاً) وهو أعلى الجبال يرى من مائة فرسخ لعلوه .. والثلوج مترادفة عليه^(٢). ويواصل المسعودي ترحاله في طريقه إلى نواحي خراسان عبر مغارة هي أقل مفاوز الإسلام سكانا وقرى ومدناً حتى يبلغ بلخ قرب نهر جيحون . وهناك سمع عن « جبل النوشادر » الذي سبقت الإشارة إليه . وفي ناحية من نواحي خراسان هي بنجهير يوجد جبل الفضة حيث تكثر الحُفَر بحثاً عن عروق الفضة^(٣) ، وعندما انتقل إلى سجستان (جنوبي إيران) وجدها صقلاً محاطاً بتلال رملية كثيرة الشجيرات والأحراج فكثرت فيها القنافذ^(٤) . ويبدو أنه كان عنده الوقت الكافي لمناقشة رأى بعض الجغرافيين القائل إن نهر جيحون يصب في بحر كرمان (المحيط الهندي) وقد انتهى إلى رفض هذا الزعم وبنى رفضه على مشاهداته أثناء جولاته في جهات فارس وسجستان وكرمان . ويعبر عن ذلك بقوله « إن أنهار كرمان التي تجري ميممة نحو ساحل مكران معروفة لنا تماماً » وهو بهذا يعني أن هذا النهر لا يمكن أن يكون أحد هذه الأنهار . وليس كالمعانية أسلوباً للتحقق والتثبت .

(١) م. ج ١ ص ١٢٥ .

(٢) شرحه ، ص ٩٢-٩٣ .

(٣) أخطأ عندما قال إن بنجهير في خراسان والصحيح أنها في سجستان ، راجع

Maqbul Ahmed, Travels of Al Masudi, Islamic Culture, vol. XXVII, No. 1, Jan. 1954. pp 514-15.

(٤) م. ج ١ ص ١٩٩ .

رحلات المرحلة الثالثة

٣٣٠-٣٤٥ هـ / ٩٤١-٩٥٦ م

عودته إلى بلاد الشام :

دخل المسعودي مصر ليستقر في نحو عام ٣٣١ هـ / ٩٤٢ م ثم بدأ تصنيف « كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر » لكنه لم يلبث أن خرج في نفس العام إلى الشام ليعود بعد فترة قصيرة فزار طرابلس ودمشق وانطاكية ومنطقة الثغور ومدناً في فلسطين كطبرية والناصرية^(١) . وقد توطدت العلاقة بينه وبين حاكم منطقة الثغور الذي حدثه عن الصلة بين بحر الروم وبحر بنطس والتقى في طرابلس عبداً من عبيد حاكم الثغور هذا وصفه بأنه بحار محرب وخبير بسفن البضاعة والحرب . وقد وجد أنطاكية (قاعدة كورة العواصم) ذات أسوار منيعة وتتصف بكثرة زلالتها وفساد مياه الشرب فيها وقام بزيارة كنيسة لها للاطلاع على بعض تواريخ طائفة المالكية اليونانيين . ومن طريف ما ذكره أنه بلغته أثناء زيارته لهذه المدينة (٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م) أخبار ارتفاع فيضان النيل إلى ثمانية عشر ذراعاً وهو ارتفاع فيه صلاح كل أرض مصر . ثم التقى في بلدة جبلة عبد الله بن وزير وهو أحد الخبراء في شئون الملاحة في بحر الروم . ويبدو أنه استفسر منه عن كثير من أحوال هذا البحر الذي لم يركبه قط^(٢) . وعندما بلغ البحر الميت وصفه بأنه بحيرة منتنة لا حياة فيها^(٣) ، وهنا يقول « ولا تمنع بين ذوى الفهم أن في مواضع من الأرض مدناً وقرى لا يدخلها عقرب ولا حية مثل مدينة حمص ومعرّة ونصرى وانطاكية » . « وقد كان ببلاد أنطاكية إذا أخرج إنسان يده خارج السور وقع عليه البق فإذا جذبها إلى الداخل لم يبق على يده من ذلك شيء إلى أن كسر عمود من الرخام في بعض المواضع بها فأصيب في أعلاه حُقٌّ من نحاس في داخله بق مُصَوَّر من نحاس نحو كف . فما مضت أيام أو على الفور من ذلك، حتى صار البق في وقتنا هذا يعم الأكثر من دورهم »^(٤) . وتلك خرافة من الخرافات التي كان

(١) يرى مقبول أحمد أنه تردد أكثر من مرة على الشام فرار في عام ٣٠٩ هـ / ٩٢١ م من الملاح طرية وحلب وبواحي انطاكية — راجع Maqbul Ahmed, p. 509 مرجع سابق .

(٢) م ح ١ ص ١٠٣

(٣) شرحه ، ص ٣٣٠-٣٣٥

(٤) شرحه ، ص ٣٦٢

مغرماً بذكرها امتاعاً للقارىء . لكن تظهر من ناحية أخرى دقة ملاحظاته وهو الرحالة الواسع التجوال كيف يفقد الحيوان أو النبات كثيراً من صفاته إذا حُمل من بيئته الأصلية إلى بيئة غريبة ويضرب مثلاً على ذلك بالطواويس وشجر النارج والأترج المدور . « فالطواويس موطنها الهند تظهر هناك رائحة تُسرّ العين فإذا ما حملت إلى أرض غريبة تصير صغيرة الأجسام كدرة الألوان ، وعندما حُمل شجر النارج والأترج المدور إلى أرض غيرها بعد ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م ليزرع في عمان ثم البصرة والعراق والشام حتى كثر في دور الناس بطرسوس وغيرها من الثغور الشامية وإنطاكية وسواحل الشام وفلسطين ومصر . (وما كان يعهد أو يعرف) فعدمت منه الروائح الطيبة واللون الحسن الذي يوجد فيه بأرض الهند لعدم ذلك الهواء والتربة والماء وحاصية البلد » (١) .

نزوله مصر :

وأغلب ما كتبه عن مصر لم يأت من واقع المعاينة والتحرية ، فقد اعتمد في ذلك على ما أطلع عليه في خزائن الكتب أو على ما سمعه من أهل الخبرة يتخلله شيء من الأساطير ، ويردد في أكثر من موضع في كتاب « مروج الذهب » أنه سبق أن بسط الكلام في أخبار مصر في كتابه « أخبار الزمان » « والكتاب الأوسط » . وسنقصر حديثنا في هذا المقام على ما شاهدته وما سمعته من الرواة في مصر من مقتبسات من بعض الأساطير التي تميز أدب رحلاته في هذه المرحلة بالذات (٢) . يقول « وليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها لا ينام الناس فيها . وهي ليلة إحدى عشرة تمضي من طوبة وست من كانون » (٣) . وقد حضر سنة ثلاثين وثلثمائة / ٩٤١ م هذه الليلة والأخشيد في داره في

(١) المصدر السابق ص ٣٣٧ .

(٢) من المنقول والمأثور وصف بعض حكماء مصر فقالوا: يلبها عجب وأرضها ذهب وحريرها جلب إوقال آخرون : هي ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء وثلثة أشهر مسكة سوداء وثلثة أشهر زمردة خضراء وثلثة أشهر سبيكة ذهب حمراء — م. ح ١ ص ٣٣٩ .

وينقل ما قالت العرب في الليل : إنه إذا زاد عاضت له الأهار والأعين والآبار وإذا عاض رادت فزيادتها من عيصه وغيصه من زيادتها . ويصيف نقلاً عن غيره . وليس في أهار الدنيا نهر يسمى بحراً أو يما غير بيل مصر لكبره واستبحاره — م. ح ١ ص ٣٤١

(٣) م. ح ١ ص ٣٤٣ .

جزيرة يطيف بها النيل . ويصف ما رآه فيقول « وقد أمر (الأخشيذ فأسرج من جانب الجزيرة وجانب القسطنطين ألف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع . وقد حضر النيل في تلك الليلة مئو آلاف من الناس من المسلمين والنصارى . ويحضرون كل ما يمكنهم إظهاره من المآكل والمشارب والملابس .. وهى أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سروراً ولا تغلق فيها الدروب ويغطس أكثرهم فى النيل ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ومبرىء للداء » (١)

وقد زار الفيوم وشاهد خلجانها وبحيراتها التى كانت من قبل مصفاة لمياه الصعيد ، ثم يشير إلى بحيرة تنيس (المنزلة حالياً) ناقلاً عن أحد المعمرين الأقباط أخباراً ماثورة حول طغيان مياه البحر على هذه البحيرة وما حولها فيقول « كانت أرضاً لم يكن بمصر مثلها استواء وطيب تربة .. ولم ير الناس بلداً أحسن من هذه الأرض ولا أحسن اتصالاً من جناتها وكرومها . ثم حدث أن بدأ البحر فى الزيادة حتى هجم الماء من البحر على بحيرة تنيس فأغرق قراها » (٢) .

ومن عجائب مصر التى كانت مطمع الولاة « الدفائن » وما يوجد فيها من ذخائر الملوك التى استودعوها الأرض . وله فى ذلك قصص طويلة سمعها من الرواة ويختتمها بقوله : « وقد كان لمن سلف وخلف من ولاة مصر إلى أحمد بن طولون وغيره وإلى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة / ٩٤٣ م — أخبار عجيبة ، مما استخرج فى أيامهم من الدفائن والأموال والخواهر وما أصيب فى القبور من المطالبد والخزائن » (٣) .

ولقد أبدى إعجابه بالأهرام حين شاهدها « فطولها عظيم وبنيانها عجيب عليها أنواع من الكتابات بأقلام الأمم السالفة .. لا يدري ما تلك الكتابة ولا ما المراد بها » (٤) . وقد شاهد بعينه بقايا الحائط المعروف بحائط « العجوز » الذى

(١) المصدر السابق .

(٢) م . ج ١ ص ٣٤٩ .

(٣) شرحه ، ص ٣٦٩ .

(٤) شرحه ، ص ٣٦١ .

يزعم وفقاً لما قرأه من تاريخ الفراعنة أن ملكة بنته وحملت عليه المحارس والأحراس . وأخبره غير واحد من بلاد أخميم من صعيد مصر حيث توجد البرابي (آثار الفراعنة) أن أحد الحكماء كان يمتحن كثيراً مما صور فيها ورسم عليها من الكتابة والصور^(١)

وعندما سأل يوماً جماعة من أهل الخبرة من أقباط مصر بالصعيد عن تفسير « فرعون » فلم يخبروه عن معنى ذلك مما يكشف عن رغبته في مزيد من المعرفة . وقد حاول هو تفسيره فيقول « يمكن والله أعلم — أن هذا الاسم كان سمة ملوك تلك الأعصار وأن تلك اللغة تغيرت كتغير الفهلوية والفارسية الأولى إلى الفارسية الثانية ، وكاليونانية إلى الرومانية ، وتغير الحميرية أو غير ذلك من اللغات »^(٢) . وهو بهذا يظهر علماً واسعاً بتاريخ اللغات .

محاورات :

ويشير في خبر طويل إلى ذلك الحكيم القبطي الذي أحسن ابن طولون وفادته ليسأله في حضور أهل الدراية أسئلة كثيرة عن مصر وتاريخها وجغرافيتها الماضية . وكان أول سؤال سأل به هذا الحكيم عن بحيرة تنيس ودمياط، فقال : « كانت أرضاً لم يكن بمصر مثلها استواء وطيب تربة ، وكانت جنانا ونحلا وكرماً وشجر أو مزارع .. ولم ير الناس بلداً كان أحسن من هذه الأرض ولا أحسن اتصالاً من جناتها وكرومها . ولم يكن بمصر كورة يقال إنها تشبهها إلا الفيوم .. وكان الماء منحدرًا إليها لا ينقطع صيفا ولا شتاء .. وسائره يصب إلى البحر من سائر خلجانه .. فلم يزل البحر يزيد ماؤه ويعلو أرضاً فأرضاً في طول ممر السنين يرى زيادته أهل كل زمان .. حتى على الطريق الذي كان بين العريش وبين قبرس .. وقبل أن تفتح مصر بمائة عام هجم الماء من البحر على بعض المواضع التي تسمى اليوم بحيرة تنيس فأغرقه ، وأما التي كانت على ارتفاع من الأرض فبقيت منها بونة وسمنود ... »^(٣) .

(١) المصدر السابق ، ص ٣٥٩ .

(٢) م . ج ١ ص ٣٦٦ .

(٣) شرحه ، ص ٣٣٧—٣٥٥ .

تشير هذه الرواية إلى هبوط شمال الدلتا ومنطقة الإسكندرية ، ومن ثم طغيان البحر في أول القرن السابع الميلادي ، وقد ثبت ذلك وكتب فيه كثير من الباحثين ، راجع عبد الفتاح وهيبه — الجغرافية التاريخية — الإسكندرية ١٩٧٥ ، ص ٢٧٨—٢٨٢ .

ومن الأسئلة الأخرى التى وجهها ابن طولون للحكيم القبطى : أتعرف بمصر مقاطع رخام ؟ قال الحكيم : نعم فى الجانب الشرقى من الصعيد جبل رخام عظيم كانت الأوائل تقطع منه العمود وغيرها ، وكانوا يَجْلُون ما عملوا بالرمال بعد النقر .. منها العمود التى بالأسكندرية والعمود الضخم الكبير بها (عمود السوارى) لا يعلم بالعام عمود مثله ^(١) . ويضيف المسعودى نبذة عما شاهده من هذه الأعمدة فى أسوان فيقول : وقد رأيت فى جبل أسوان أخا لهذا العمود (عمود السوارى) قد هندس ، ونقروم . يفصل من الجبل ولم يُحَكَّ ما ظهر منه وإنما كانوا ينتظرون أن يفصل من الجبل ثم يحمل إلى حيث يريد القوم ^(٢) .

تم سئل عن الفيوم وحليج المنهى وحجر اللاهون (قنطرة اللاهون) ^(٣) ، فذكر القبطى كلاما طويلا فى تاريخ هذا الأقليم ومشروعات الرى التى أقامها القدماء . تم يكشف المسعودى عن اهتمامه بدراسة أهل العقائد والمذاهب المختلفة . فيقول : « ولهذا القبطى مجالس كثيرة عند أحمد بن طولون مع جماعة من الفلاسفة والديصانية والتنوية والصابئة والجوس ، وعدة من متكلمى الإسلام . وقد أتينا على ما احتمال منها إirاده فى كتابنا « أخبار الزمان » ^(٤) .

من الأخبار الماثورة :

ويواصل المسعودى ذكر الأخبار الماثورة عن مصر فيذكر ما قيل حول بناء الأهرام والكتابة التى لا تقرأ عليها وعلى البرابى بها وعن النوبة وأرضها إلى غير ذلك من الأخبار . ومن بين ما سمعه عن بلاد النوبة وأهلها : « أنهم أصحاب إبل وبُخْت وبقر وغنم وملكهم يمتطى الخيل العتاق ورميهم بالنبل .. وعنهم أخذ الرمى أهل الحجاز واليمن وغيرهم من العرب . ولهم النخيل والكرم والذرة والموز والحنطة وأرضهم كأنها جزء من أرض اليمن وملكهم يستولى على ما مقرا وعُلوة ^(٥) .

- (١) م . ج ١ ص ٣٥١ .
 (٢) شرحه ، يشير الرحالة إلى المسئلة التى لم يكتمل قطعها وهى اليوم من المزارات السياحية فى أسوان .
 (٣) شرحه ، ص ٣٥٢ .
 (٤) شرحه ، ص ٣٥٥ .
 (٥) شرحه ص ٣٥١-٣٥٢ .

ولا تقتصر العجائب في مصر على الأهرام والبراني والدفائن ففي نيلها وأرضها عجائب كثيرة من أنواع الحيوان مما في البر والبحر . من ذلك السمك المعروف « بالترعاد » ، إذا وقعت واحدة منه في شبكة صياد رُعدت يداه . والفرس (فرس النهر) الذي يكون في النيل إذا خرج من الماء وانتهى إلى بعض المواضع من الأرض علم أهل مصر أن النيل يزيد إلى ذلك الموضع بعينه غير زائد عليه ولا مقصر عنه^(١) .

وفي أثناء جولاته في صعيد مصر يبدو أنه علم بوجود موضع يقال له « الخربة » في صحراء مصر الشرقية فيه معدن الزمرد وغير بعيد عنه تقوم مدينة « قوص » على النيل وهي مدينة عامرة ومدينة قفط وتبعد عن النيل قليلاً . وقد وجدها متداعية للخراب^(٢) .

البجة ووادي العلاقي والواحات :

وقد اكتفى بجمع الأخبار عن البجة وأرضها ووادي العلاقي معدن الذهب وما حاوره . من هذه الأخبار أن جماعات « البجة » المالكة لهذا المعدن (الزمرد) تتصل ديارها بوادي العلاقي وهو معدن الذهب . « وماء أهل العلاقي من المطر كما أن لهم ماءً من عين يسيل وسط الوادي . وأقرب العمارة إليهم مدينة « أسوان » التي يختلط أهلها بالنوبة ، وأهل النوبة من ناحيتهم متصلة تجارتهم وقوافلهم بمدينة أسوان »^(٣) . وكانت بلدة « بلاق » أعلى نقطة على النيل تصعد إليها سفن المسلمين . ويذكر أنه استقى هذه المعلومات من رجل صديق لصاحب الواحات قابله بباب الأخشيد سنة ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م ، وهو لم يزر الواحات ولكنه استقى أخباراً عنها . من ذلك أنها تقع بين بلاد مصر والاسكندرية وصعيد مصر والمغرب وأرض الأحابش . « وبها أرض شبيهة .. وعيون حامضة »^(٤) . وصاحب الواحات في عام ٣٣٢ هـ /

(١) م . ج ١ ص ٢٥٦ .

(٢) م . ج ٢ ص ٢٦ .

(٣) شرحه ص ٢٦ .

(٤) شرحه ، ص ٢٧ .

يذكر أنه حصل على أخبار الواحات من صديق لصاحب الواحات كان باب الأخشيد محمد بن طنح عام ٣٣٢ هـ ٩٤٣ م فيقول : « سألت عن كثير من أخبار بلادهم وما احدثت أن أعلمه من خواص أرضهم وكذلك كان فعل مع غيره في سائر الأوقات ممن لم أصل إلى بلادهم » - م ج ٢ ص ٢٧ .

٩٤٣ م كان رجلاً من لواته ، يركب في ألوف من الناس .. خيلاً وتُجِباً ..
وفي أرضه خواص وعجائب وهو بلد قائم بنفسه غير متصل بغيره ويحمل من
أرضه الثمر والزبيب والأعناب .

الإسكندرية :

وقد زار الإسكندرية بعد عودته من مصر العليا إلى مقره في القسطنطينية
ولكنه لم يسجل مشاهدته^(١) ، واكتفى بجمع أخبار عنها وأغلبها يدور حول
تاريخها وحول بنائها وعجائبها كما يقول . وهي أخبار غير ممحصّة تنجح إلى
المبالغة والخيال في كثير من المواضع . لكنه رأى منارة الإسكندرية في إحدى
زياراته عام ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م وهي من عجائب العالم ، ثم بحث باهتمام إنهار
جانب منها في زلزال ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م ، وفي هذا يقول : « وتهدم في شهر
رمضان سنة ٣٤٤ هـ نحو من ثلاثين ذراعاً من أعاليها بالزلزلة التي كانت ببلاد
مصر وكثير من بلاد الشام والمغرب في ساعة واحدة على ما وردت علينا
الأخبار المتواترة ونحن بفسطاط مصر وكانت عظيمة جدا مهولة .. أقامت
نصف ساعة^(٢) . ويبدو أنه شاهد أيضاً المسلات في رحلته المشار إليها وهي في
رأيه من الطلسمات التي اتخذها الإسكندر ، طول كل واحد منها ثمانون
ذراعاً . كما علم أن جزيرة رودس وهي مقابلة للإسكندرية كانت دار صناعة
الروم عندما كتب مصنفه « مروج الذهب » في عام ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م
« وبها تنشأ المراكب الحربية وفيها خلق كثير من الروم ومراكبهم تُغير على
الإسكندرية فتأسر وتسبي^(٣) » .

وما لبث أن توفي عام ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م بعد حياة حافلة بالعباءة وبفقدته .
انقضى عصر المسعودي كما يسميه سارتون .

(١) من الواضح أنه رار الإسكندرية أكثر من مرة .

(٢) ت. ص ٥٩-٦٠ .

(٣) م. ح ١ ص ٣٧١ .

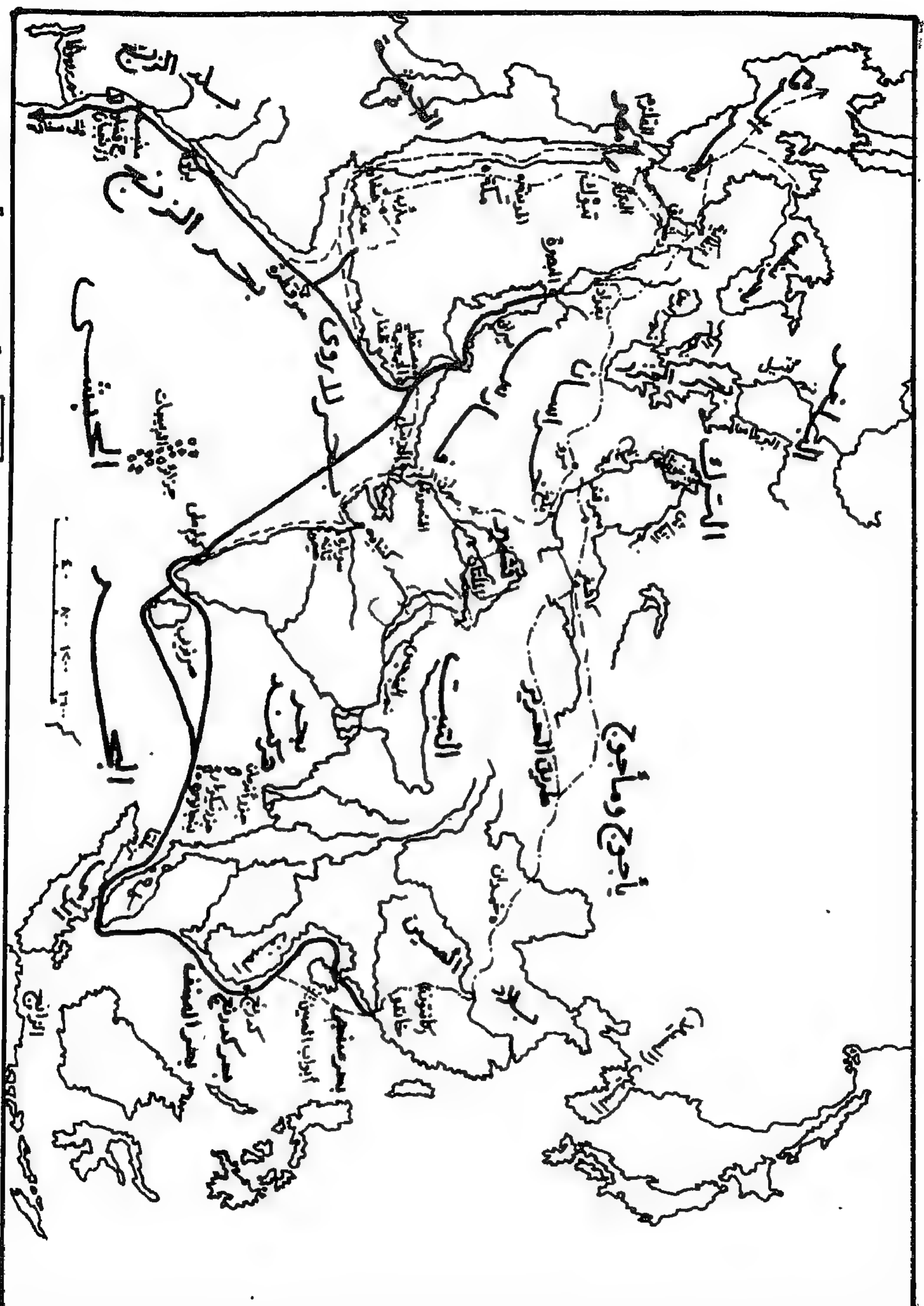
وصفوة القول :

إن المسعودى هذا العالم الموسوعى شغف بالرحلة فى باكورة حياته فأمضى شطرا كبيرا من عمره سائحا وانتظمت جولاته رقعة واسعة من بلاد المسلمين وجزءا من بلاد غير المسلمين . وخلال رحلاته، دَوّن ما عاينه وصقل تجاربه وأضاف إلى معارفه مما أطلع عليه من كتابات وما نقله عن كتب السابقين . وقد ضمن كل ذلك كتبه التى فقدت إلا من كتابين انتهيا إلينا هما « كتاب مروج الذهب » و « التنبيه والاشراف » . ويخبرنا أن « كتاب مروج الذهب » فيه ما سبق أن بسطه وشرحه فى كتابيه المفقودين « أخبار الزمان » و « الأوسط » وأن « كتاب التنبيه والاشراف » أودعه لمعا مما دَوّنه فى « كتاب مروج الذهب » ثم أضاف إليه موضوعات تفرد بها . وقد حاولنا قدر الاستطاعة إستخلاص ما فى هذين المصنفين من أدب جغرافى نظرى وواقعى . وعماد الأدب النظرى هو النقول عن الكتب المترجمة إلى العربية والكتب العربية الخالصة، ويدور حول الأفلاك وهيئاتها والنجوم وتأثيراتها والأزمنة وفصول السنة والرياح ومهابها والأرض وتشكلها وبحارها وأنهارها والنواحي والآفاق وتأثيرها فى السكان وحدود الأقاليم السبعة . ولعل ما قدمه من أدب جغرافى نظرى¹ عن كتاب وفلكيين عرب هو من بين أفصل إسهاماته فى هذا المجال . قدم ذلك وكأنه يحاول أن يثبت بالدليل أنه إذا كان هذا الأدب يونانى النشأة فقد أصبح بفضل علماء عرب أفذاذ عربى الهوية بعد أن أرسيت قواعد دولة الإسلام .

أما وصفه لرحلاته فقد حاكى فيه أسلوب الجاحظ وطريقة كتابته خاصة استطراداته الكثيرة وخروجه عن الموضوع بإضافة ما يمتع القارئ من حديث الأساطير وعجائب المخلوقات وغريب القصص . ومع ذلك ومهما قيل عن مثالبه فهذا لا يقلل من قيمة أدب رحلاته وما أنطوى عليه من حقائق وتجارب هى مصدر لأدب جغرافى واقعى يفيد مستقبلا فى بناء جغرافية الماضى .

لنقل فى الختام إن تراث المسعودى من الأدب الجغرافى بشقيه النظرى والواقعى تراث تنبع أصالته وأهميته من انتماؤه إلى أزهى عصور الحضارة العربية وإلى اشتهار صاحبه بالثقافة العالية بفضل رحلاته وقراءاته الواسعة فجاء تعبيراً عن حضارة عصر ذهبى بكامله .

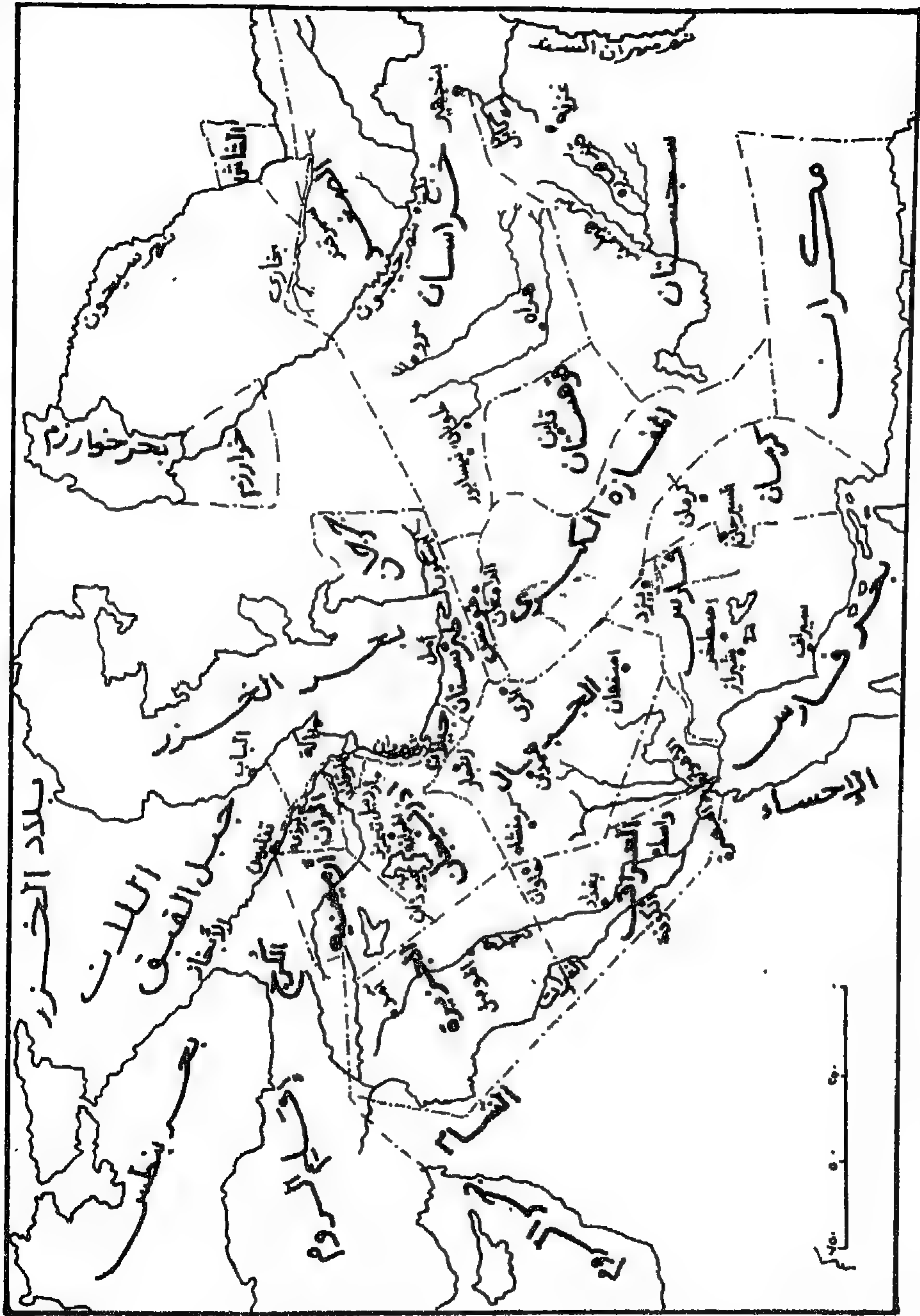
من
الأشكال



شكل (١)

أهم طرق التجارة العربية في القرنين الثالث والرابع هـ (٩ و ١٠ م)

الأقاليم الجنوبية الغربية من قارة آسيا على عهد الخلافة العباسية
شكل رقم (٢)



ملاحق

ملحق رقم (١)

مؤلفات المسعودي^(١)

تنقسم هذه المؤلفات إلى عدة فئات وفقا للموضوع وهى كما يلى :

الفئة الأولى :

هى كتب الثقافة العامة فى إطار جغرافى تاريخى أو تاريخى فحسب وتضم مايلي من مصنفات :

١ - كتاب أخبار الزمان ومن أباداه الحدثان .

كتب قبل عام ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م ويعالج بكثير من التفصيل والتوضيح ما أجمله المؤلف فى كتابيه « مروج الذهب » و « التنبيه والاشراف » . ويذكر أنه عرض فيه لأحداث التاريخ فى شكل حوليات . لكنه لم يصل إلينا مثله فى ذلك مثل بقية الكتب التى ألفها المسعودي وفقدت إلا من كتابيه « مروج الذهب » و « التنبيه والاشراف » .

٢ - كتاب راحة الأرواح .

صدر قبل عام ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م ويمثل ملحقا للكتاب الفائت ويهتم بالحملات والحروب خاصة تلك التى خاضها ملوك مصر الأسطوريين والتى لم يكتب عنها فى « كتاب أخبار الزمان » .

٣ - الكتاب الأوسط .

يبدو أنه سار على نفس مخطط « أخبار الزمان » وتصميمه لأنه كان ملخصا له وإن انفرد بموضوعات كانت تحتاج إلى تفصيل .

٤ - كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر .

كتب فى عام ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م فى الفسطاط وروجع ونقح عام ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م وروجع للمرة الثانية فى عام ٣٤٥ هـ / ٩٥٦ م أى قبيل وفاة صاحبه بفترة قصيرة . وتستند شهرة المسعودي فى هذه

(١) اختلف كتاب السير فى عدد مصنفاته فبينما لا يذكر ابن النديم إلا أسماء خمسة منها يرفع ياقوت عددها إلى أحد عشر ثم يأتى حاجى خليفة فيرتفع بها إلى ١٦ مصنفات مما يؤكد أنهم لم يحاولوا النظر فى كتابيه « مروج الذهب والتنبيه والاشراف » فقد ضمنهما المسعودي أسماء ٣٤ كتابا .

الأيام على هذا الكتاب . راجع الملحق رقم ٢ وترجمة المؤلف في بداية الدراسة .

- ٥ — كتاب وصل المجالس بجوامع الأخبار
هو عبارة عن مجموعة متنوعة من المعارف وخاصة ما يتصل بها بالأندلس . وهي أقرب للأدب منها للتاريخ .
- ٦ — كتاب الأخبار المسعودية .
كتاب يؤرخ لتاريخ بلاد العرب قبل الإسلام ثم يعرض لتاريخ الأندلس بطريقة منهجية .
- ٧ — كتاب مقاتل فرسان العجم .
صنف عام ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م .
- ٨ — كتاب فنون المعارف وما جرى في الدهور السوالف .
تم تصنيفه بعد عام ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م .
- ٩ — كتاب ذخائر العلوم
تمت كتابته بعد عام ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م وهو أكثر تفصيلا من « كتاب التنبيه والاشراف » بخصوص بعض القضايا والمسائل حول تاريخ البيزنطيين .
- ١٠ — كتاب الاستذكار لما جرى في سالف العصور .
ربما كان أشبه بمذكرات .
- ١١ — كتاب تقلب الدول وتغير الآراء والملل .
ربما كان تأملات فيما جرى قبل أن يسقط شمال إفريقية في أيدي الفاطميين .
- ١٢ — كتاب التنبيه والاشراف .
صنف بين عامي ٣٤٤—٣٤٥ هـ / ٩٥٥—٩٥٦ م وهو آخر أعماله التي أتمها قبل وفاته . راجع محتويات هذا الكتاب في الملحق رقم (٣) وتواريخ نشره في العصر الحديث في ترجمة المسعودي .

الفئة الثانية :

هى كتب تاريخية أيضا ولكنها مخصصة لتاريخ على بن أبى طالب رضى الله عنه وتاريخ آل البيت . وتضم الكتب التالية :

- ١٣- كتاب الزاهى .
نشر قبل عام ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م ويدرس على رضى الله عنه وخلافاته مع الرافضين لخلافته .
- ١٤- كتاب حدائق الأذهان فى أخبار أهل بيت النبى .
فى تاريخ على بن أبى طالب .
- ١٥- كتاب مظاهر الأخبار وطرائف الآثار .
كتاب يشبه السابق فى أنه يدرس تاريخ على بن أبى طالب وشيعته .
- ١٦- كتاب رسالة البيان .
صُفِّ قبل عام ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م .

الفئة الثالثة :

- تضم كتابين فى قضية الإمامة من وجهة نظر المذاهب الإسلامية المختلفة .
- ١٧- كتاب الاستخبار فى وصف الأقاويل .
 - ١٨- كتاب الصفوة فى الإمامة .

الفئة الرابعة :

- هى كتب تضم مقالات تنظر فى الهرطقة الدينية فى شكل رافض وجاد .
- ١٩- كتاب المقالات فى أصول الديانات .
كتب قبل ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م يناقش ويجادل الشيعة والخوارج والمعتزلة فى ما يذهبون إليه وكذلك يناقش مذاهب غير المسلمين من الصابئة واليهود والنصارى .
 - ٢٠- كتاب الإبانة عن أصول الديانة .
 - ٢١- كتاب الانتصار .
يرفض مذهب الخوارج وقد رجع إليه ياقوت فى أخبار الخوارج .

٢٢- كتاب الاسترجاع في الكلام .
يحتوى على رفض. للمعتقدات غير الإسلامية .

٢٣- كتاب الدعاوى .
ينفى فيه تقمص الأرواح .

٢٤- كتاب خزائن الدين وسر العالمين .
عالج آراء مختلف الفرق خاصة القرامطة .

لفئة الخامسة :

كانت الفلسفة العامة من بين اهتمامات المسعودى كما لم يفتر اهتمامه بالفلسفة السياسية وعبر عن ذلك في الكتب التالية :

٢٥- كتاب سر الحياة .

يتحدث عن الروح ويناقش معتقد الثالوث المقدس والمهدى المنتظر إلى غير ذلك من معتقدات .

٢٦- كتاب الزلف .

يعالج الروح إلى جانب دراسة موضوعات مثل صفات الملوك والكون والمرض والموسيقى والحيوانات .

٢٧- كتاب طب النفوس .

خصص أيضا لحديث الروح .

٢٨- كتاب النهى والكمال .

٢٩- كتاب الرؤوس السبعة فى السياسة الملوكية المدنية .
يعالج الفلسفة السياسية .

٣٠- كتاب نظم الجواهر فى تدبير الممالك .

الفئة السادسة :

تشتمل على مصنفين لهما طبيعة علمية :

٣١- المبادئ والتراكيب .

يناقش تأثير النيرين الشمس والقمر على الحياة .

- ٣٢- كتاب القضايا والتجارب .
 يضم مشاهد رحلاته وملاحظاته أثناء تطوافه مشيرا إلى مختلف
 الظواهر وعوامل الطبيعة الثلاثة .
 الفئة السابعة :
 كتب في الشريعة وأصولها :
 ٣٣- الواجب في الفروض اللوازم .
 يعبر فيه عن آرائه حول الخلاف المذهبي بين السنة والشيعة وتم
 تصنيفه قبل ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م .
 ٣٤- كتاب نظم الأدلة في أصول الملة .
 تم تصنيفه هو الآخر قبل ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م .
 ٣٥- كتاب نظم الأعلام في أصول الأحكام .
 يعرض لقواعد الشريعة عند الشافعية والمالكية والحنفية .
 ٣٦- كتاب المسائل والعلل في المذاهب والملل .

عن :

Ch. Pellat. Masudi, Encyclopedica of Islam; Vol. VI, pp. 785-8T.

ملحق (٢)

محتويات

« كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر »

هذا مصنف كتبه عام ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م وراجعته ونقحه عام ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م ثم راجعه للمرة الثانية عام ٣٤٥ هـ / ٩٥٦ م . ويقع في أربعة أجزاء تضم إجمالاً أكثر من ألف وسبعمائة صفحة . وعلى الرغم من شدة تنوع مواده وكثافتها إلا أنه لم يُبدل جهد في تبويبها تبويبا سليما . فعنوان كل باب لا يكشف تماما عن فحواه ، وعلى الباحث أن ينقب في كل صفحاته حتى يعثر على ضالته .

والكتاب في إيجاز ينقسم إلى قسمين رئيسيين ، يعرض القسم الأول منهما لتاريخ الأنبياء حتى نزول الوحي على محمد ﷺ . ثم يتبع ذلك مقالات في حكمة الهنود وملوكهم وعاداتهم وكتبهم ، ثم يعالج بعض جوانب الجغرافية النظرية فيما يخص الأرض والبحار والأقاليم السبعة ومركز الأرض من الفلك والشمس ورأى بطليموس في صفة الأرض والأفلاك والأنهار والبحار والمد والجزر ومغاصات اللؤلؤ وصفات الماء المالح مقارنة بالماء العذب ، ويخلط ذلك بذكر هياكل الصابئة والمراتب الدينية لرجال النصرانية .

وينتقل بعد ذلك إلى ذكر ما شاهده وما علمه عن البحر الحبشي وبحار الزنج والروم وبنطس والخزر ولاروى وهركند والصنف والصين . ثم يرجع إلى التاريخ تاريخ الصين والترك يتبعه بحديث طويل عن مشاهداته وتجاربه فيما يتصل بالبحار وما فيها من العجائب وما حولها من الأمم وأخبار الأندلس ومعادن الطيب . ثم يعود مؤرخا فيذكر ملوك بابل والنبط وملوك فارس ثم ملوك اليونان والروم ، ثم يخص مصر بخبر طويل عما قرأه عنها وما شاهد من عجائب وآثار . وينتهي هذا القسم بفصول عن الزنوج والصقالبة وبلاد الغال وجيليقيا . ثم يتبع ذلك بتاريخ بلاد العرب القديم وعرض لمعتقدات الهند وفارس وآثارهما الدينية .

أما القسم الثاني فيعرض باختصار لشعوب البلاد غير الإسلامية يتبعه بعرض

مستفيض لتاريخ الإسلام منذ عهد النبوة إلى عهد الخليفة العباسي المطيع الذي
ببيع عام ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م متحدثاً عن سيرة كل خليفة أو ملك . وهو لا
يكف عن تنبيه القارئ إلى أن ما أورده في كتابه هذا قليل من كثير سبق أن
شرحه في كتابيه « أخبار الزمان » و « الأوسط » .

ملحق (٣)
محتويات
« كتاب التبيه والإشراف »

هذا كتاب صغير يضم نحواً من ٣٦٥ صفحة يمثل مختصراً لما جاء في بعض كتبه وخاصة « كتاب مروج الذهب » . ويحدثنا المؤلف أنه كان في سنة ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م يشتغل بوضع النسخة الأولى فيه في فسطاط مصر ثم زاد عليها وأصلحها في سنة ٣٤٥ هـ ، وكان هذا الكتاب آخر مصنفاته فقد انتقل بعد فترة قصيرة من اتمام هذه النسخة الثانية إلى جوار ربه ودفن بالفسطاط .

يخوى الكتاب معلومات عن الأفلاك وهيئاتها والنجوم وتأثيراتها والعناصر وتراكيبها وأقسام الأزمنة وفصول السنة ومنازلها . ثم يعرض للرياح وما بها والأرض وشكلها ومساحتها والنواحي والآفاق وتأثيرها على السكان وحدود الأقاليم السبعة والعروض والأطوال ومصاب الأنهار .

ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الأمم السبع القديمة ولغاتها ومساكنها ثم ملوك الفرس على طبقاتهم والروم وأخبارهم ونجوامع تاريخ العالم والأنبياء ومعرفة السنين القمرية والشمسية .

ويعالج القسم الأخير من الكتاب سيرة الرسول ﷺ وغزواته وسنى هجرته وسير الخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم مع التعرض إلى ذكر من كان في عهدهم من ملوك الروم والأفدية .

المصادر والمراجع

مصادر ومراجع

المصادر :

- ١ — ابن حوقل — صورة الأرض — بيروت ١٩٧٠ .
- ٢ — ابن خردادبة — كتاب المسالك والممالك — لندن ١٨٨٩ .
- ٣ — ابن خلدون — المقدمة — القاهرة (بدون تاريخ) .
- ٤ — ابن خلكان — وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان — القاهرة ١٨٥٨ .
- ٥ — ابن شاطر — فوات الوفيات — طبع بمصر (بدون تاريخ) .
- ٦ — ابن الفقيه — كتاب البلدان — لندن ١٨٨٣ .
- ٧ — ابن النديم — الفهرست — طبع بمصر (بدون تاريخ) .
- ٨ — اخوان الصفا . — رسائل اخوان الصفا . — خمسة مجلدات — بيروت ١٩٥٧ .
- ٩ — البكري — جزيرة العرب (من كتاب الممالك والمسالك) — تحقيق عبد الله يوسف الغنيم ، الكويت ١٩٧٦ .
- ١٠ — البيروني — تحقيق ماللهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة — لندن — ١٨٨٧ .
- ١١ — الجاحظ — كتاب الحيوان — تحقيق عبد السلام هارون — القاهرة ١٩٦٧ .
- ١٢ — الجاحظ — كتاب التبصر بالتجارة — تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب — بيروت ١٩٦٦ .
- ١٣ — الدينورى — كتاب الأنواء — حيدرآباد ١٩٥٥ .
- ١٤ — الرام هرمزى (برزج بن شهریار) — عجائب الهند — برّة وبحره وجزائره — نشره فون درليث — لندن ١٨٨٣ .
- ١٥ — سليمان التاجر وأبو زيد السيرافى — سلسلة التواريخ — طبع ونشر النص — المستشرق الفرنسى لانجل Langles — باريس ١٨١١ ثم نقله إلى الفرنسية م. رينو M. Reinaud — باريس ١٨٤٥ .
- ١٦ — المسعودى — مروج الذهب ومعادن الجوهر — تحقيق محمد محبى الدين عبد الحميد — القاهرة ١٩٦٤

- ١٧ — المسعودى — التنبيه والإشراف — مكتبة الهلال — بيروت ١٩٨١ .
 - ١٨ — المقدسى — أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم — لندن ١٩٠٦ .
 - ١٩ — الهمداني — صفة جزيرة العرب — تحقيق ابن بليهد — القاهرة ١٩٥٣ .
 - ٢٠ — ياقوت الحموى — معجم البلدان — خمسة أجزاء — بيروت ١٩٧٩ .
 - ٢١ — اليعقوبى — كتاب البلدان — لندن ١٩٠٥ .
- مراجع عربية :
- ١ — جلال مظهر — مآثر العرب على الحضارة الأوربية — القاهرة ١٩٦٠ .
 - ٢ — جورجى زيدان — تاريخ التمدن الإسلامى — خمسة أجزاء — القاهرة ١٩٥٨ .
 - ٣ — حسين فوزى — حديث السندباد القديم — القاهرة ١٩٤٧ .
 - ٤ — « المعارف الملاحية العربية فى العصور الوسطى » — من كتاب أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية — الاهرة ١٩٧٠ .
 - ٥ — حسين مؤنس — أطلس تاريخ الإسلام — القاهرة ١٩٨٦ .
 - ٦ — « الجغرافية عند المسلمين وتراث الهنود والفرس واليونان » — صحيفة معهد الدراسات الإسلامية — مدريد ١٩٥٩ — ١٩٦٠ .
 - ٧ — زكى محمد حسن — الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى — القاهرة ١٩٤٥ .
 - ٨ — سليمان حزين — « المشرق العربى بين الماضى والحاضر » المجلة الجغرافية العربية — الجمعية الجغرافية المصرية — العدد الأول ١٩٦٨ — ص ٤ — ٢٧ .
 - ٩ — شوق ضيف — الرحلات — القاهرة ١٩٨٧ .
 - ١٠ — طه الحاجرى — « تخرىج نصوص أرسططالية فى كتاب الحيوان للجاحظ » . مجلة كلية الآداب — جامعة الاسكندرية العدد السادس والسابع — ١٩٥٢ — ١٩٥٣ .

- ١١ — عباس العقاد — أثر العرب في الحضارة الأوربية — القاهرة ١٩٦٠ .
- ١٢ — عبد العزيز كامل — جغرافية الإسلام في افريقية — القاهرة ١٩٦٠ .
- ١٣ — عبد الفتاح محمد وهيبه — جغرافية الإنسان — الإسكندرية ١٩٩٢
- ١٤ — — الجغرافية التاريخية — الإسكندرية ١٩٧٧ .
- ١٥ — « جغرافية العرب في العصور الوسطى » —
الجمعية الجغرافية المصرية — القاهرة ١٩٦٥ .
- ١٦ — « الجغرافية والثقافة الإسلامية » — المؤتمر
الجغرافي الإسلامي الأول — الرياض ١٤٠٠ هـ / ١٩٧٩ م نشر
البحث عام ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .
- ١٧ — علي حسن الخربوطلي — « المسعودي » سلسلة نوابغ الفكر العربى
(٣٨) — القاهرة ١٩٦٨ .
- ١٨ — قدرى حافظ طوقان — العلوم عند العرب — القاهرة ١٩٦٠ .
- ١٩ — نيقولا زيادة — الجغرافية والرحلات عند العرب — بيروت ١٩٦٢ .
- ٢٠ — — الرحالة العرب — الألف كتاب (٩٧) — القاهرة
١٩٥٦ .

مراجع أجنبية مترجمة إلى العربية :

- ١ — أحمد (نفيس) جهود المسلمين في الجغرافية — ترجمة فتحى عثمان
مراجعة على أدهم — سلسلة الألف كتاب (بدون تاريخ) .
- ٢ — بارتولد (ف) تاريخ الحضارة الإسلامية — ترجمة حمزة طاهر —
القاهرة ١٩٥٨ .
- ٣ — بروكلين (كارل) — تاريخ الشعوب الإسلامية — نقله إلى العربية
نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي — بيروت ١٩٦١ .
- ٤ — حتى (فيليب) — تاريخ العرب — ترجمة محمد نافع — المجلد
الثانى — القاهرة ١٩٥٢ .
- ٥ — حوراني (جورج) — العرب والملاحة في المحيط الهندى في العصور
القديمة وأوائل القرون الوسطى — ترجمة السيد يعقوب بكر —
القاهرة ١٩٥٨ .

٦ — سارتون (جورج) — تاريخ العلم — ترجمة لفيف من العلماء — القاهرة ١٩٥٧—١٩٦١ .

٧ — علوى (ضياء الدين) — الجغرافيا العربية — تعريب وتحقيق عبد إله يوسف الغنيم وطه محمد جاد — الكويت ١٠٤١ هـ / ١٩٨٠ م .

٨ — كراتشكوفسكى (أغناطيوس) — تاريخ الأدب الجغرافى — ترجمة صلاح عثمان هاشم — جزء آان — القاهرة ١٩٦٢—١٩٦٥ .

٩ — لستراىج (ج) — بلدان الخلافة الشرقية — ترجمه وأضاف إليه تعليقات مختلفة بشير فرنسيس وكوركيس عواد — بغداد ١٩٥٤ .

١٠ — متر (آدم) — الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى — ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة — القاهرة ١٩٥٧ .

١١ — ميچيل (أندريه) — جغرافية الإسلام البشرية — الجزء الأول — السة الثانية — ترجمة ابراهيم خورى — دمشق ١٩٨٢ .

١٢ — ميللى (ألدو) — العلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العالمى — نقله إلى العربية عبد الحليم النجار ومحمد يوسف موسى — القاهرة ١٩٦٢ .

١٣ — نالينو (كارلو) — محاضرات علم الفلك — تاريخه عند العرب فى العصور الوسطى — بغداد (بدون تاريخ) .

المراجع الأجنبية :

1 - Ahmed, Maqbul, Travels of Abu'l Hasan, Ali B. Al Husayn al Mas'udi Islamic Culture, Vol. XXVIII, No. I, Jan. 1956.

2 - Baker, J.,L., A History of Geography and Exploration, London, 1948.

3 - Beazley, C.R., The Dawn of Modern Geography, 3 Vols. New York 1949.

4 - Dempier, W., Science in the Ancient World. Cambridge, 1929

5 - De la Ronciere, ch. Le Découverte de l'Afrique Au Moyen Age, Le Caire, 1925.

- 6 - Dreyer, J.L., Planetary Systems, Cambridge, 1906.
- 7 - Heyd, W. Histoire du Levant au Moyen Ages, 2 Vols, Leipzig et, Paris 1825.
- 8 - Holt-Jensen, A., Geography its History and Concepts, New Jersey, 1982.
- 9 - Huzayyin, S.A., Arabia and the Far East, Cairo, 1942.
- 10- Huzayyin, S.A., Some Arab contributions to Geography, Geog. Oct., 1932.
- 11- James, A.E. and Martin, G., All Possible Worlds, N.Y., 1981.
- 12- Kimble T., Geography in the Middle Ages, London, 1938.
- 13- Kramers, J.H., "Geography and Commerce". The Jegacy of Islam, (ed.), T. Arnold and A. Guillaume, Oxford, 1930.
- 14- Lelewel, J. Géographie du Moyen Age. 4 Vols, Bruxelles, 1850-57.
- 15- McEvedy C., The Penguin Atlas of Medieval History, Manchester, 1961.
- 16- Newton, A.P. Travel and Travellers of the Middle Ages, London, 1949.
- 17- Pellat, Ch., "Mas'udi", The Encyclopaedia of Islam, Vol. VI, Leiden, 1991.
- 18- Raisz, E. General Cartography, N.Y. 1958.
- 19- Reinand, M. Géographie d'Aboulfeda, T.I., Paris, 1948.
- 20- Schoy, G., The Geography of the Moslems of the Middle Ages, London, 1949.
- 21- Smith, D.E., History of Mathematics, Boston, 1923, Vol. I.
- 22- Spate, O., India and Pakistan, London, 1964.
- 23- Wright, J., Geographical Lore of the Crusades, N.Y., 1924.

المحتويات

٩ — ١٠

تمهيد

١١ — ٢٣

نظرة عامة

العرب قبل الإسلام وبعده — نقل الثقافات — الجغرافية
الوصفية — التجارة وانتشار العرب بعد الإسلام —
أدب الرحلات الذى تعرف إليه المسعودى — أنواع
الرحلات .

٢٤ — ٢٨

سيرة المسعودى

٢٩ — ٥٤

القسم الأول الأدب الجغرافى النظرى

عن المصادر اليونانية : الفلك — حول مركز الأرض
من الفلك — حول شكل الأرض المسكون وغير
المسكون — المسطحات المائية — الأقاليم السبعة — عن
المصادر الهندية والفارسية — عن المصادر العربية —
مفاهيم عربية : حكمة التكوين — قياس محيط الأرض —
الأقليم الرابع — البحار — بعض المسائل الطبيعية —
اختلاف قوى الأرضين — العوامل التى تحدد مواضع
الاستقرار — تأثير المجال الحيوى فى حياة الناس
وصفاتهم — تأثير المناخ على الإنسان .

٥٥ — ٩٤

القسم الثانى الأدب الجغرافى الواقعى (أدب الرحلات)

الرحلات المبكرة : البحار التى ركبها — جنوبى الجزيرة
العربية — الجزر — إعصار التيفون فى بحر هر كند —

بجار أخرى بعيدة وجزائر — بحر الزنج — بين السودان
والزنج — الهند والسند — الهند وأهلها — بلاد
السند — بلاد قشمير — ثغرا الملتان والمنصورة — ممالك
هندية — الصين وأهلها — المسلمون في الصين — مدينة
خمدان — طريق الحرير — بلاد التبت .

رحلات المرحلة الثانية : ممالك إسلامية — أطمات
وبزاة — ممالك غير إسلامية — من غريب الأمم — من
عجائب المخلوقات — أم وممالك أخرى حول بحر
الخزر — في جورجيا وخراسان وسجستان .

رحلات المرحلة الثالثة : العودة إلى بلاد الشام — نزوله
مصر — محاورات — من الأخبار المأثورة — البجة
ووادى العلاقى والواحات — الإسكندرية .

٩٥	صفوة القول
٩٦—٩٨	من الأشكال
٩٩—١٠٧	ملاحق
١٠٨—١١٢	المصادر والمراجع

مركز الدلتا للطباعة

٢٤ شارع الدلتا - اسبورتج

تليفون : ٥٩٥١٩٢٣

